# الذئب يأتي من بعيد

رواية

تأليف

معتز عبد الكريم

obeikan.com

**طبعة ٢٠١٧**

عبد الكريم، معتز.

الذئب يأتى من بعيد : رواية/ معتزعبد الكريم – .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٣١٢ ص,٢٠ سم

تدمك: ٢ ٥١٠ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ - العنوان

٨١٣

obeikan.com

# الذئب يأتي من بعيد

رواية

تأليف

معتز عبد الكريم

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

**عادل المصرى**

عضو مجلس الإدارة المنتدب

**نوران المصرى**

**رقم الإيداع**

**٢٠١٦/٢٧٣٨٩**

**الترقيم الدولى**

**٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥١٠-٢**

**الطبعة الاولى**

**طبعة ٢٠١٧**

**الكتاب : الذئب يأتى من بعيد**

**المؤلف : معتزعبد الكريم**

**الغلاف : أحمد الصباغ**

**الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م**

**٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة**

**atlas@innovations-co.com**

**www.atlas-publishing.com**

**تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥**

**فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨**

****

obeikan.com

# لقاء الصباح الباكر

كان الصباح مُشرقًا في ذلك اليوم، سماء صافية، بعض الغيمات النشطة، الشمس الحانية، تلك هي طبيعة الصباح في أغلب أيام الشتاء في مدينة القاهرة.

تلك الأيام التي لا يؤرقها سوى دفقات هائلة من الزحام والضجيج، وقدر كبير من التلوث المتصاعد إلى السماء كأرواح شريرة، تتصاعد في دُفعات متتالية طوال النهار حتي تسيطر تمامًا على السماء عندما يَحل المساء.

كان الصحفي الشاب يمضي في طريقه في ذلك الصباح، حاملاً على كتفيه حقيبة بها مُجمل أدواته الّتي يستعين بها حينما يكون مُقبلاً على إجراء حوار مع شخصية مُهمّة، أو صُنع تحقيق ذو طبيعة خاصة.

كان سائرًا وهو يتأمل تلك الصورة السابقة، يُراقب حال المدينة من حوله، الّتي تبدو رائقة في مَطلع الصباح، ثم سرعان ما تتحول إلى تابوت ضخم عندما يَحل الظلام، تابوت يبتلع الفقراء، ينثر القاذورات في الطرقات، يأكل أموال الضعفاء، ويسيطر على نفوس الأشقياء، ينثر الدم في كل مكان، ويُطلق الصرخات المفزعة في كل اتجاه.

obeikan.com

كان يعبث في شعره بأنامله الطويلة النحيفة، محاولاً أن يتذكر جملة ما؛ نعم، لقد سمع أو قرأ ذات مرة أن المدن طبيعتها الشر، حينها غرق في موجة من التساؤلات حول تلك الجملة؛ هل حقًا المدن قائمة علي الشر بعكس حال الريف مثلاً؟ أم أن الشر في الأساس هو طبيعة البشر؟

بعد رحلة من التنقل بين المواصلات المرهقة، تلك العلب الحديدية الّتي أكلها الصدأ، وصل أخيرًا إلى مقره المنشود، والحق يُقال: أنه لم يستغرق وقتًا طويلاً في الوصول إلى هناك؛ فموعده في ذلك اليوم كان مبكرًا جدًا.

في تمام السابعة صباحًا، كان شغوفًا في أن يُقابل ذلك الكاتب الشّهير، الّذي طالما سمع وقرأ عن مغامراته كثيرًا، كان مُتّجهًا إلى موعده وبداخله قدر كبير من الميل إلى التصديق، وقدر أكبر نحو الشك والإنكار؛ فذلك الرجل غريبًا جدًا، وما يكتبه أكثرغرابة، المعلومات عنه كانت شحيحة للغاية، وكأنه ذا ماضٍ سرِّي، أو حرص أن يكون كذلك.

كل ما استطاع أن يجمعه عنه من معلومات؛ أنه كان في السابق ضابطًا مثاليًا، بل كان عبقريًا أيضًا، يَحل القضايا بطرق غير مُتوقَعة أو مُتصَورة، لكنّه بعد فترة خدمة قصيرة، وتأثرًا

بأجواء الجريمة والتحقيقات، وشغفه بالعوالم الغريبة، الّتي تسكنها الأشباح، والأرواح المجنونة، استقال من الخدمة بعد أن ساهم في حل قدر ليس بقليل من الجرائم المستعصية، وتفرغ للعمل بالمحاماة، وكتابة الكتب التي تُحقق وتبحث في أعماق تلك العوالم العجيبة والغامضة.

وربما كان فاتح الغرائب، هو ذلك الموعد الّذي استطاع أن ينتزعه من وسط جدوله المشحون، وبعد إلحاح مرير دام عدة أسابيع، ضرب له الرجل موعدًا في تمام السابعة صباحًا.

من هذا المجنون الذي يُقابل الناس في هذا الموعد المبكر من النهار؟!

لكنها ضريبة العمل الصحفي علي أي حال، وقَدَر الصحفيين الجدد من أمثاله؛ فهو ما زال صحفيًّا صغيرًا، في مطلع العشرينيات من عمره، وما زال أمامه طريقًا طويلاً جدًا، حتى يصل إلى مقعد الراحة والتمكن.

وصل إلى فيلا الرجل في أحد التّجمّعات الجديدة الّتي أحاطت القاهرة في السنوات القليلة الماضية، ولكنه ليس بالمكان الفاخر جدًا كما يعيش بقية الأثرياء في هذا الوطن؛ فالمبنى متواضع إلى حدٍ كبيرٍ، وترقد أمامه سيّارة مُتواضعة أيضًا، البوابة

ضئيلة الحجم إلى حد ٍ ما، كما أن العالم من حوله يبدو مهجورًا إلى حد ٍ بعيد ٍ في تلك المنطقة الحديثة نسبيًا؛ فقد شعر الصّحفي الشاب أنّ أكثر سُكان هذه المنطقة هما: الرمال، والرياح.

ازدادت دهشته وهو يضغط على الزر الخاص بجرس المنزل، فما الّذي يدفع ذلك الرجل أن يعيش في تلك المنطقة الموحشة تقريبًا، وهو كما عرف من المعلومات الّتي جمعها عنه، ثري إلى حد ٍ كبير ٍ؛ فهو من عائلة ريفيّة شهيرة، ورث مالاً ليس بقليل من أبائه، في صورة عقارات، وأطيان.

قطع حبل أفكاره ظهور رجل من الداخل، يرتدي ملابس رياضيّة؛ قميص قُطني أبيض، وسروال قصير ذو لون أسود، وعلى عنقه وضع فوطة وردية اللون.

قفز الرجل على الدرجات المؤدية إلى الحديقة الّتي تُحيط بالمبنى بكل رشاقة وخفة، كان يبدو أنه رياضي البنية، وذو ملامح صارمة أو ربما غامضة، ذو شعر قصير يُشبه قصات الرجال العسكريين، أبيض البشرة، ذو عيون عسلية صافية، وابتسامة موحية، لاحظها وهو مُقبل نحوه.

فتح البوابة لذلك الطارق الغريب، ثم بادره مُبتسمًا وهو ينظر في ساعته:

- أستاذ ماجد؟

أجاب الصحفي بإيماءة من رأسه الّتي اعترت ملامحها مزيد من الدهشة:

- نعم.

صاح في الرجل مازحًا:

- عندك تأخير ثلاث دقائق يا محترم.

ثم بادره مُرحّبًا:

- تفضل إلى الداخل.

طاوعه الصّحفي الشاب، وتخطى البوابة وهو في حيرة شديدة من أمره؛ لقد اختلط عليه الأمر، هل هذا هو الرجل المنشود أم ابنه؟!

إنّه لم يرَ صورة له من قبل، ولكن على حد علمه، أنه ليس بمتزوج، كما أنه لم يستطع أن يجمع معلومات عن عمره، ولكن إن كان هذا هو ابنه، فلا شك أنه سيكون رجلاً عجوزًا للغاية، وقد يُرهقه في سبيل انتزاع الحوار من براثن ذاكرة عتيقة.

obeikan.com

صعد درجات السلم ومن خلفه صاحب الدار، حتى وصلا إلى الباب الخشبي، لكن الصّحفي التفت خلفه، ونظر إليه، فوجده يُجفف عرقه في هدوء، كانت عيناه تلمعان ببريق غامض، باغته الرجل متسائلاً في فضول:

- هل هنالك خطب ما يا سيد ماجد؟

أجابه:

- لا لا، ولكني أود أن أسأل هل الوالد مستيقظ حاليًا؟ أم أنني أتيت في وقت غير مناسب؟

انفجر الرجل في نوبة من الضحك، وقد لاحظ تردد الشاب من أمامه قائلاً:

- الحقيقة إن والدي نائم منذ عشر سنوات، ولم أفلح في إيقاظه، رغم أنني الخبير في عالم الأرواح والأشباح، ولكن لا ضرر من الاستعانة بقدرتك، فقد تُفلح أنت فيما لم يُفلح فيه أحد من البشر حتى الآن.

بُهت الصّحفي فاغرًا فاهه، وقد انتابته نوبة من الحرج، وانطلقت الكلمات بغير ترتيب من فمه:

- إنني آسف جدًا، هل أنت الأستاذ أنور النواوي الكاتب المشهور؟

obeikan.com

ربّت الرجل على كتف الشاب في مرح:

- لا داعي للأسف، هو أنا بشحمه ولحمه.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# الذِّئب

جلس الصّحفي على مقعد مريح، بداخل حجرة المكتب الخاصة بذلك الرجل الغامض، كان جالسًا في انتظاره بعدما استأذنه للحظات قليلة؛ يأخذ فيها حمامه الصّباحي، بعد جولة من التريُّض المعتاد، كان ماجد مندهشًا جدًا، متعجبًا للغاية، وربما يشعر بقدر قليل من الإحباط؛ فالرجل كان بخلاف ما تخيله تمامًا، شاب عمره لا يتعدى الثامنة والثلاثين عامًا، وليس كما اعتقد أنه أكبر عمرًا، رشيق القوام، وسيم إلى حدٍ كبيرٍ، إنّه أكثر شبابًا منه تقريبًا!

أخذ يتأمل حجرة المكتب بنظراته المتوترة، كانت عبارة عن مكتب ضخم في الصدارة، وأمامه مقعدين وثيرين يجلس على أحدهما، ومن أسفلهم سجادة بديعة المنظر، أما باقي مساحة الحجرة الفسيحة؛ فكانت مكتبة عظيمة جدًا، تأخذ دوران الحجرة بأكملها.

قام من مكانه بعدما وضع حقيبته على تلك المائدة الصغيرة التي تتوسط المقعدين، ثم اقترب من تلك المكتبة، وأخذ يدور معها وهو يتأمل عناوين الكتب، لقد كانت مكتبة شاملة؛ تضم من أكبر الموسوعات إلى أصغر الكتب: فن، وسياسة، وأدب، وغرائب...

كتب بلغات متعددة: الإنجليزية، والأسبانية، والإيطالية، والفرنسية.

ظل يدور حول نفسه، وهو يُقاوم رغبة ملحّة بداخله أن يلتقط بعض الكتب ليطالعها من الداخل، إلاّ أنه شعر أن ذلك سلوك شائن، فعاد إلى مقعده كطفل مرتبك، وجلس وهو يتنهد، ثم عاد ينظر إلى سطح المكتب الفسيح، على أطرافه بعض الكتب الأجنبية أيضًا، وأوراق، وأقلام، وقداحة ضخمة على شكل ثعبان، وعلبة سجائر مَحلِّية الصنع، وساعة كبيرة ترقد في صمت.

نظر في ساعته فوجدها تقترب من السابعة والنصف، ازدادت الحيرة بداخله، هل سيجني من وراء هذا الشاب تحقيقًا يستحق؟ أم أنه مجرد مدعيًا في هذا المجال؟

صاح بداخله:

- اللعنة عليك يا صاحبي.

ذلك الصديق الّذي أشار عليه أن يسعى في إجراء الحوار مع ذلك الضابط، أو الثّري، أو الكاتب، فيبدو أنه قد أرسله إلى وهم كبير، فكيف لشاب مثله لم يتعدَ الخامسة والأربعين، أن يَجمع خبرة هائلة في تلك العوالم المثيرة؟!



obeikan.com

نظـر إلـى المكتبـة مـن جديـد، محـاولاً أن يسـتعيد تفاؤلـه، لكـن علـى أي حـال، يبـدو أنّـه مثقـف للغايـة، أو هكـذا أظـن، عـاد الشـيطان يوسـوس إليـه؛ أم تـراه قـد ورث تلـك المكتبـة العظيمـة مـن والـده؟ وهـو الطبيـب المشـهور، والعالـم القديـر.

اتّجـه بأناملـه إلـى الحقيبـة الراقـدة أمامـه، فتحهـا في ضيـق، واسـتخرج مـن داخلهـا علبـة السـجائر، أشـعل لفافـة، ثـم نفـث دخانهـا في حرقـة قائـلاً: ولـمَ الحيـرة! كلهـا دقائـق، وسـأعرف حقيقـة ذلـك الرجـل.

دلـف أنـور النـواوي إلـى الحجـرة بعـد دقائـق قليلـة، مرتديًا لباسًـا رسـميًا كامـلاً؛ حلـة فاخـرة، وسـاعة يـد كلاسـيكية، وحـذاء لامـع، وكان يرتـدي نظـارة طبيـة رقيقـة، سـلّم علـى الصّحفـي، معتـذرًا علـى التأخيـر، ثـم اتّخـذ موقعـه خلـف المكتـب العريـض، راسـمًا ابتسـامة علـى وجهـه، ثـم بـادره قائـلاً وهـو يمـزح -أثنـاء التقاطـه لفافـة مـن العلبـة الراقـدة علـى سـطح المكتـب- :

- حسـنًا، فلتخبرنـي كيـف ستسـاعدني في إيقـاظ والـدي مـن جديـد؟ فأنـا مشـتاق إليـه كثيـرًا، رغـم أنـه يعيـش معـي في كل لحظـة -يشـير إلـى المكتبـة- فكثيـر مـن الكتـب التـي تراهـا مـن حولـك، ورثتهـا عنـه في لحظـة مـن لحظـات انتقـال القـدر.

انتبه الصّحفي للجملة الأخيرة بعد أن ذبلت الابتسامة على وجهه مع جديّة تلك الكلمات، فتح الحقيبة مجدّدًا في اهتمام؛ فهذه هي اللحظة المناسبة، كي يجد مدخلاً مُباشرًا للحديث.

أخرج تسجيلاً صغيرًا، وأوراقًا، وأقلامًا، ثم بادره قائلاً بعدما أدار جهاز التسجيل:

- ماذا تعني بجملة انتقال القدر؟ هل قدر إنسان ما من الممكن أن يُصيب شخصًا آخر؟

ضحك أنور، وهو يُطفئ جهاز التسجيل قائلاً:

- أستاذ ماجد أحب أن أوضح شيئًا في البداية، أنّ ما سأقوله لك، هو خارج السجل، أي أنه لا مجال للكتابة أو التسجيل، إنني أحب أن أتحدث مع البشر، لا أن أملي عليهم أحاديثي، التواصل الإنساني أمر مُهم في الارتقاء بالنفس والروح ومُهم جدًا لمن أراد التأمل والشعور.

أنت صحفي شاب كما فهمت، فليكن لك طابعك الخاص، ولا تكرر تجارب السابقين، أتعرف أن هذه هي مأساتنا؟ التكرار بدون أسباب، بدون وعي، بدون فهم، إن الحياة أمر عظيم، يستحق التأمل والتوقف عند لحظاته.



obeikan.com

قاطعه الصّحفي في حماس، بعدما تفاءل أخيرًا بتلك الحكمة التي يلحظها في حديث ذلك الكاتب الغريب الأطوار قائلاً:

- هذا ما أريد أن أفعله تمامًا، ولهذا أنا هنا، أبحث عن ما هو جديد ولافت؛ فالصحافة جزء فيها يرتكن على المعرفة، وجزء آخر على التشويق.

ثم وضع التسجيل داخل الحقيبة مجدّدًا، ووضع القلم على الأوراق من أمامه؛ بعدما أحس بقدر أكبر من الارتياح، وقال:

- لهذا أنا أسأل عن تلك الجملة: ماذا تعني بلحظة انتقال القدر؟ ابتسم أنور قائلاً:

- أعني أن عالم الأقدار ليس عالم وقتي أو لحظي، إنه متواصل ومتشابك، وكل جزء، هو جزء من كل، فميلاد المرء يحمل قدرين لا قدر واحد؛ قدر الابن بهذا الأب والأم، وقدر الآباء بذاك الابن.

سأله الصّحفي بمزيد من الشغف:

- سيِّدي، لقد قمت بحل كثير من الجرائم الغامضة، والّتي ربما تندرج أحيانًا تحت بند الخيال أو التوهم، ولكن دعني أسألك في البداية، ماهي القاعدة الذهبية التي كنت تؤسس عليها كيفية حل تلك الألغاز؟

obeikan.com

ضحك أنور مقهقهًا:

- أعرف أن حديثي قد يبدو صادمًا للبعض، ولكن هي ذات القاعدة العتيقة، فتِّش عن المرأة، وبالطبع إنني لست متحيزًا بطبعي، ولم اتّبع تلك القاعدة منذ البداية، ولكن مع التكرار، أصبحتُ أراها تقفز في مخيلتي مع كل معضلة. قاطعه الصّحفي:

- ولكن إن في هذه القاعدة تحيزًا واضحًا بالفعل!

ضحك الكاتب مجدَّدًا وهو يرتشف رحيق لفافته في تأمل قائلا:

- لقد آرقتني هذه الجملة في أيام سابقة، بحثًا عن السر ورائها، حتى وجدت اللغز في حديث شوقي، حين قال: «الأم مدرسة إن أعددتها، أعددتَ شعبًا طيِّب الأعراق» فالقضية لا ترتبط بغواية المرأة كما يدّعي كثيرون، بقدر أهمية دور الأم، وهي امرأة بطبيعة الحال في حياة الإنسان.

إن المجرم تلعب العوامل النفسية في حياته دور البطولة، ولا شك أن الأم عليها عبء في تنشئة جيل متوازن نفسيًا. ثم قال وهو مشبكًا أنامله:

- أتعرف؟ إنني اكتشفت أن الأب مهما كان سيئًا، فالأم يمكنها أن تداوي جراح أبناءها من أفعالها، على عكس الأب إن كان مثاليًا، إلاّ أن تأثيره يكاد لا يُذكر إذا ما كانت الأم سيئة الطباع أو المسلك أو التربية.

بادره الصحفي قائلاً:

- حسنًا، هل يمكنك أن تقصّ عليّ قليلاً بعض المعلومات عن طفولتك، وشبابك، وعائلتك؟

قاطعه مجدّدًا بضحكة مقتضبة قائلاً وهو يُشير بإصبعه:

- ما زلت تقليدي للغاية يا صاحبي، دعك من الأسئلة المعتادة، فالسؤال أشبه بمفتاح الكنز، كلما كان مناسبًا، كلما كانت المكاسب أكبر، ما تطلبه مني، يمكنك أن تعرفه في سياق إجابات أخرى.

شعر الصحفي الشاب بقدر من التحدي، وهو يواجه منطق ذلك الكاتب الغريب، إن كلماته منطقية ودمثة، ولكنها تُخفي في طياتها سياط لاذعة، قرر وهو يدس لفافته في تلك المطفأة الراقدة أمامه، أن يبادره بالهجوم قائلاً في ضيق:

- حسنًا سؤال آخر، وأرجو أن يكون مختلفًا هذه المرة، أنت متهم بأنك تلجأ إلي أفكار عجيبة وأدوات ما ورائية في حل بعض

obeikan.com

الألغاز المستعصية، فهل أنت محقق؟ أم ضابط؟ أم كاتب؟ أم دجّال؟ وأرجو أن تسامحني في الوصف الأخير. أجابه بعدما خلع نظارته وأخذ ينفث في عدساتها، ثم مسحها بقماشة صغيرة كانت في جيبه:

- ما رأيك في نظّارتي هذه؟

هزّ الصّحفي كتفيه في عجب، ثم قال:

- إنها جميلة، وذات ذوق رفيع.

أجابه مصفقا في حماس:

- رائع، وما رأيك في لون عدساتها؟

تفحص الصحفي النّظّارة عن بعد، ثم أجاب في دهشة:

- إنها شفافة لا لون لها.

قاطعه قائلاً:

- ممتاز، حسنًا هل لك أن تفسر لي هذه المعادلة؛ كيف لشخص ضعيف البصر جدًا أن يرى بصورة أفضل من خلال قطعة زجاجية شفافة؟ أليس هذا سحر؟!

obeikan.com

أجابه الصّحفي في حماس:

- بل هو العلم بطبيعة الأشياء وتطويعها.

ضحك الكاتب بشدة قائلاً:

- وهذا ما أفعله في حل الجرائم، أستغل كل العلوم المتاحة، وكل الوسائل الممكنة، مهما كانت غريبة، ومهما كان اسمها؛ طب شرعي، أو تنويم مغناطيسي، أو علوم الاتصالات إلخ...

ولا ضرر أن يراها بعضهم سحرًا، وأن يراها غيرهم علمًا.

شعر الصحفي أنه يجلس أمام شخص عبقري بالفعل، عيناه تقولان ذلك، ولسانه ينطق بذلك؛ لذلك ازداد شغفه في أن يعرف أكثر عن هذا الرجل، ولهذا اختار أن يسأله عن أكثر الجرائم الغريبة الّتي صادفها مؤخرًا.

التقط منه أنور السؤال، ثم مال أسفل المكتب، والتقط بعض الأكواب، وإناء لحفظ المشروبات السّاخنة، ثم نظر إليه مبتسمًا قائلاً:

- بكل أسف لا يمكن أن نطبِّق القاعدة الذهبية في منزلي المتواضع، فإن فتّشت عن المرأة لن تجدها، فأرجو أن تحتمل مذاق الشاي هنا، فأظن أنك ستشعر أنه يحمل مذاقًا خشن، ضحك الصّحفي قائلاً:

- أظنني قادر على الاحتمال، والتقط منه كوب الشاي الّذي كان مشبّعا بالأبخرة، ثم استكمل قائلاً:

- حسنًا ماهي تلك الجريمة الغريبة الّتي من الممكن أن تُحدّثِنا بشأنها؟

ارتشف أنور قليلاً من الشاي في صمت، وكأنه يستجمع أحداث تلك الجريمة الغامضة في رأسه، ثم نظر إليه قائلاً:

- إنها جريمة دموية ومؤلمة بكل تأكيد، لقد أسميتها حينئذٍ عملية الذئب.

●●●



obeikan.com

# اللغـز

أراح أنـور ظهره علـى مقعده الجلدي المريح، بعدمـا وضـع كفيـه علـى رأسـه ـ في وضـع متشـابك، وكأنـه يعـود بالزمـن إلـى الـوراء.

أمـا الصّحفـي فقـد راح يتأمـل ملامحـه التـي باتـت تتغيـر مـع ذكريـات راحـت تتوالـى علـى ذهنـه، انتهـز تلـك اللحظـة، والتقـط أوراقـه مجـدّدًا، وأخـذ يكتـب فصـولاً لحكايـة مضـت.

التقـط أنـور شـهيقًا قويًّـا، ثـم مـال بجذعـه إلـى الأمـام بعـد أن تخلّـص مـن تشـابك أناملـه.

نظـر إلـى الصّحفـي المنهمـك في إعـداد أوراقـه، لكنّـه لـم يعتـرض هـذه المـرة، وإنمـا انطلـق في الحديـث بنبـرة مؤثـرة، بخـلاف نبرتـه الجـادة السـابقة:

- إننـي أتذكـر ذلـك اليـوم البعيـد؛ ملامحـه، وسـكونه، وتلـك البـرودة الّتـي كانـت تُغلِّـف الأجـواء في ذلـك الصبـاح.

كنـت جالسًـا حينهـا في مكتبـي في إدارة الأمـن العـام بـوزارة الداخليـة، قسـم جرائـم النفـس.

كان الضيق يعتريني بعدما أمضيت في هذه الإدارة مدة شهر بلا عمل يُذكر، فالحقيقة أنني كنت عائدًا لتوي من الخارج، بعدما انتهيت من بعثتي إلى إنجلترا؛ لدراسة العلوم الأمنية والتحليلية.

وكم كانت تلك الرحلة مفيدة للغاية، اطّلعت فيها على عالم اسكوتلانديارد، وتشبعت بروح الأساطير الّتي كانت تُروى عن أشهر المحققين الخياليين في عالم الأدب.

كما أنني اقتنصت تلك الفترة التي تعدّت العام والنصف في الاحتكاك بعالم محضّرِي الأرواح، والمنجِّمين في تلك الدولة ذات التاريخ العريق.

وحينما عدت إلى أرض الوطن، كانت المكافأة مُضَاعفة؛ فلقد رُقِّيت حينها إلى رتبة رائد، وحصلت على الماجستير، وأُنتدبتُ مؤقتًا في إدارة جرائم النّفس، حتي يتم تسكيني في مكان ملائم في موعد قريب.

والحقيقة أنني أمضيت ذلك الشهر بدون عمل يُذكر؛ فكل المجموعات البحثية كانت متكاملة، ولم يكن لي مكان في الانخراط معهم، وكانت الأعمال الكتابية قدري في تلك الفترة.

أما ذلك الصباح فقد كان مختلفًا، كنت أجلس على مكتبي في ملل، ومن أمامي هرم من الأوراق والملفات الروتينية المملة، كانت

obeikan.com

الشمس تختفي خلف الغيوم في ذلك الشتاء القارس، ورغم أنني أغلقت النوافذ جيدًا، والأبواب، وجلست أرتشف القهوة السّاخنة، إلاّ أنني كنت أحس برجفة مزعجة بفعل برودة الأجواء، حاولت التخلص منها عبر تدخين مزيد من اللفافات، واجتراع أكبر قدر من المشروبات السّاخنة، ووسط هذا الصّمت البارد، حيث أنني كنت أرقد في تلك الحجرة وحيدًا بشكل مؤقتًا، حتى علا رنين الهاتف من أمامي، التقطت السّماعة، فأتاني صوت أجش، إنه صوت أعرفه تمامًا.

اللواء/ ممدوح الرفاعي قائدي المباشر، وجدته يطلبني على عجل، في صيغة دعوة على فنجان من القهوة الشهية، ورغم أنني كنت أمسك بقدح آخر في يدي، إلاّ أنني تصنّعت البهجة، والترحيب بتلك الدعوة المباغتة.

أغلقت الهاتف، ثم انتفضت أعدل من هندامي، واعتمرت الكاب فوق رأسي في هدوء، وانطلقت إلى خارج الحجرة، ماشيًا في الممر الممتد، تشيعني تحيات الجنود، بالسواعد والأقدام.

طرقت الباب في تأدب، ثم دلفت إلى الدّاخل، وتواترت التّحية العسكرية التي أطلقتها مع ابتسامة قائدي الهادئة، اعتدل قائمًا ثم سلّم عليّ، ومن بعدها دعاني إلى الجلوس، وهو يقول:

- قهوتك مظبوط على ما أتذكر يا سيادة الرائد؟

ابتسمت قائلاً:

- بكل تأكيد يا فندم، الانضباط هو سمة العسكريين.

أخذ اللواء يقهقه، وهو يضغط على زر الاستدعاء.

دلف الجندي إلى الداخل، ثم أمره أن يأتي لنا بقدحين من القهوة، ثم عاد والتفت إليّ قائلاً:

- رغم حديثك عن الانضباط، وهذا شيء جيد، إلاّ أن العمل لا يخلو من لحظات التذمر.

ثم قال في تحاذق:

- أليس كذلك؟

فهمت سريعًا ما يرمي إليه فأجبته:

- أعتقد أن حرص الضابط على العمل، لا يعد نوعًا من التذمر، وخاصة إن كان مؤهلاً لأداء هذا العمل.

استكمل اللواء حديثه بعدما قدّم الجندي القهوة إلينا قائلاً وهو يرتشف القهوة في لذة:

- حديثك صحيح، ولكن كما تعرف، أنت من أفضل الضباط لدينا، ولديك سجل حافل ومشرِّف، ولا أخفيك سرًا، أنّ معظم الإدارات تحاول أن تضمك إليها، وحتى يُحسم هذا الصراع، أنت معنا مؤقتًا.

قاطعته متنهدًا في ضيق:

- ولكن يا سيدي، أنا أكره حياة الموظفين، لا يمكن أن أصحو مبكرًا، لأجلس على مكتب مكتظ بالدفاتر والأوراق، إنني رجل بحثِّي، ميداني، وهذا الوضع المؤقت، فيه ظلم كبير لي.

وضع اللواء القهوة من بين يديه، وانهمك في البحث عن شيء ما داخل أدراجه، حتى أخرج ملفًّا ضخم الحجم، ووضعه أمامه، ثم بادرني قائلاً في بشاشة:

- وأنا لا أرضى بالظلم أبدًا.

واستطرد قائلاً في تحاذق:

- هل تعرف مدينة ٦ أكتوبر؟ فأنا أعرف أنك عائد لتوك بعد رحلة طويلة، وأظن أنك بحاجة إلى بعض من الوقت في تذكر الأماكن والأحياء.

أجبته في ثقة:

obeikan.com

- إنني أعرفها جيدًا، فقد خدمت فيها مطلع حياتي المهنية كملازم صغير، في محافظة الفيوم، وكنت أمر بهذه المدينة كثيرًا حينها.

ضحك اللواء في فرح قائلاً:

- هذا أمر رائع، فالمأمورية التي نحن بصددها، لها علاقة بإحدى مراكز الفيوم القريبة من هذه المدينة.

فتح الملف، وكان بداخله مظروفًا، وقدّمه إليّ قائلاً:

- وهذا هو خطاب تكليفك بهذه المهمة، هل أنت سعيد الآن؟ أجبته وأنا أتطلع إلى جواب المأمورية:

- من المؤكد أنني سعيد بأي فرصة لها علاقة بالعمل البحثِّي، ولكن هل يمكنك أن تُطلعني على مزيد من التفاصيل عن هذه المهمة؟

نظر إليّ في ألم قائلاً:

- إنها جريمة معقدة للغاية، وكل شيء ستجده في هذا الملف.

قدّم الملف الضّخم إليّ، ثم استرسل:

- كل المعلومات المتاحة، قاطعته:

- وما هو المطلوب مني بالضبط؟



obeikan.com

أجابني:

- أن تذهب إلى هناك، غدًا صباحًا، وأن تساعدهم في محاولة حل هذا اللغز الشائك.

تهللت فرحًا، ثم وقفت واضعًا الملف في يدي، وقد اعتمرت الكاب مجددًا قائلاً في ثقة:

- هل هنالك أوامر أخرى؟

ابتسم اللواء قائلاً:

- على رسلك قليلاً، لماذا لا تكمل قهوتك أولاً؟

ابتسمت قائلاً:

- أعتقد أنني سوف أكملها وأنا أراجع هذا الملف في مكتبي.

أجابه اللواء في حماس:

- حسنًا، سر على بركة الله، فهنالك الكثير من الأمور المفزعة في هذا الملف، وهذه الجريمة على رأس أولوياتنا، وإذا احتجت أية معونة في الأيام القادمة، يمكنك أن تحادثني هاتفيًا، في أي وقت.

أديت التّحية العسكرية في نشاط بعدما تخلصت من فعل برودة الأجواء، ثم سلّمت عليه، واتخذت طريقي عائد نحو

openeikan.com

حجرتـي، الّتـي وجدتها قـد ازدادت صقيعًـا عـن الدقائـق القليلـة الماضيـة.

وضعـت الـكاب علـى الطاولـة، وأخـذت أتلمـس رائحـة ذلـك الملـف العتيـق، كنـت أشـم فيـه رائحـة الـدم، إننـي أعـرف تلـك الرائحـة جيـدًا.

جلسـت على المقعد واضعًـا الملف أمامـي، وأخـذت أتطلـع إلـى البيانـات التـي كُتبـت عليـه مـن الخـارج، الجنايـة رقـم ٢٤ لسـنة ١٩٩٦.

●●●

# رائحة الدّم

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا، حينما بدأت الإبحار بين أمواج ذلك الملف الغامض.

وضعت الملف أمامي بعدما هيّأت إلى جواري إناء كبير لحفظ الشاي الساخن، وأغلقت باب الغرفة تمامًا، أغلقت ستائر النوافذ أيضًا؛ لأمنع نفسي من التشتت مع تقلبات الجو في الخارج، فعندما بدأت في مطالعة الملف، حدث شيء غريبًا تمامًا، تكاثرت السُّحب الرمادية في السماء، حتى ابتلعت الشمس بشكل كلِّي في جوف السماء الغائمة، وسرعان ما بدأ المطر في الهطول، كانت زخات المطر تُصدر صوتًا مزعجًا على زجاج النوافذ، وكأنها طائر نهم، صار ينقر علي الزجاج بصوت منفر، ومع تلك الدقات أيضًا، بدأت مصابيح عقلي في العمل، وزخات الأفكار تتوارد على ذهني، وأنا أمرّ على السطور الغريبة، الّتي تثير مئة سؤال، وألف علامة تعجب كبيرة.

كان الملف يحوي صورة رسمية كاملة من تحقيقات الشرطة، وتحقيقات النيابة العامة أيضًا، حول ملابسات تلك القضية، الّتي قيدت في النهاية تحت بند ضد مجهول.

obeikan.com

تلك العبارة كانت في الورقة الأولى من الملف، قيدت الجناية رقم ٢٤ لسنة ١٩٩٦ ضد مجهول، بواسطة عضو النيابة المختص، مع مراعاة إعادة فتح التحقيق فيها، إذا ما جدت وقائع أو أدلة أخرى، إمضاء...

وضعت الورقة إلى جواري، وانتقلت إلى صلب التحقيقات، حيث اتّضح لي من خلال قراءتي للأوراق، أنه في صباح أحد أيام شهر يوليو الحار من عام ١٩٩٦، كان هنالك مزارع، يُدعى الحاج/ سلامة أبو منصور، يبلغ من العمر ٦٦ عامًا، تابع لقرية (الأهالي)، مركز ميت عمران، كان متوجهًا إلى قطعة الأرض الّتي يملكها، كما اعتاد أن يفعل كل صباح، من خلال الطريق الشمالي للقرية، القريب من الطريق الرّئيسي المؤدي إلى محافظة الفيوم، وذلك الطريق ذو طبيعة جبلية وصحراوية، يتخللها على مساحات بعيدة، العديد من القطع الزراعية المستصلحة.

وفي تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، بينما كان الرجل سائرًا في طريقه وهو يجر أحد الدواب من خلفه، تعثر في ملامح شيء غريب، والّتي كانت في حقيقة الأمر، جثة متآكلة الأجزاء بشكل بشع، بما يُنبئ عن تعرضها للهجوم والافتراس من قبل أحد الحيوانات المفترسة.

وسرعان ما انتشر الخبر في القرية، ووصل إلى مسامع عمدة القرية، ويُدعى الحاج/ ضيف أبو أزد أحمد، والّذي قام بالإجراءات المعتادة في مثل هذه الأحوال، حيث أبلغ قسم شرطة السادس من أكتوبر، والّتي تتبعه القرية إداريًا؛ إذ إنها تقع على حدود التقاء مدينة السادس من أكتوبر ومحافظة الفيوم، كما قام العمدة بالتّحفظ على الجثّة في مكان العثور عليها، منعًا للعبث بها من قبل سكان القرية، لحين وصول السيد مأمور المركز، ورجال النيابة العامة.

كانت هذه البداية، الّتي توقّفتُ عندها قليلاً، ثم أشعلت لفافة من التبغ، وأخذت أرتشف قدحًا من الشاي في هدوء، ثم وقفت في مكاني، وتوجهت حيث النافذة، أزحت الستائر مجدّدًا، وأخذت أنظر من خلف الزجاج نحو الخارج.

كانت الرؤية مهتزة إلى درجة العدم، وكأنما عبثت قطرات المياه بذلك الغبار المتراكم على النافذة، فصنعت لوحة سريالية يصعب فهمها، أو التقاط ملامحها؛ خطوط متعرجة من الطين والفراغ، وخطوط متقطعة، وفي أحيان أخرى: خطوط متقاطعة.

أخذت أتامل تلك اللوحة، وأنا أنفث الدخان من فمي نحوها، والغريب في الأمر: أنني بعد دقائق قليلة، كنت أشعر أنني أفهم

مغزى هذه اللوحة القدريّة، إن ذلك التيه، وهذه الضبابية، تُشبه إلى حد بعيد، عالم الجريمة؛ فالجريمة في بدايتها تكون كهذه اللوحة تمامًا، مئات الخطوط التي لا تؤدي إلى شيء، تتقاطع وتتقطع، دون أن يفهم المرء حقيقتها.

مددت إصبعي نحو النافذة، وأخذت أعبث في البخار المتكاثف على سطحها، وأنا أردد علينا أن نصل الخطوط ببعضها البعض حتى ندرك كنه الحقيقة الغائبة.

عدت من جديد إلى مقعدي وأنا أكثر حماسًا، نظرت في ساعتي، فوجدتها تعدت الثانية عشرة، حينها قررت أن أعدل من طريقة تعاملي مع الأوراق والملف.

إن القراءة المتأنية الآن، لن تُفضي إلى شيء، بل ستزيد من الإحساس بالغموض، أكثر وأكثر؛ فحتى الآن تبدو البداية طبيعية جدًا، جثة ملقاة في الصّحراء،عثر عليها أحد المزارعين، وبتحديد هوية الجثّة، وطبيعة علاقاتها، ومعاملاتها، سيكون الوصول إلى الجّاني أمر سهل جدًا.

كما إنني أذكر فيما تعلّمت في دراستي، أنّ علم الجريمة قائم على التصنيف؛ فجرائم الحضر والمدن، مختلفة في طبيعتها عن جرائم القرى والريف، أو مجتمعات الصّحراء. ففي المجتمعات

الأخيرة، تحتل جرائم الشّرف الصدارة في حالات القتل العمد، كذلك لا يمكن أن نغفل سر ذلك الحيوان الشرس، الّذي تظهر أنيابه على حدود الجثّة وملامحها.

قررت ألاّ أقرأ بالترتيب المعتاد، صرت أقفز بين الأوراق والسطور، حتى أجمع ملخصًا بسيطًا عنها.

وكم كان الأمر مثيرًا للغاية بعد عدة صفحات أخرى؛ فقد تبين لاحقًا، أن الجثّة لطفل صغير، يُدعى عوض إبراهيم، يبلغ من العمر ثمانية أعوام، وهو نجل لأحد المزارعين البسطاء، الذي يعمل أجيرًا لدى الناس في حقولهم.

وهنا بدأت الأسئلة في التوافد على ذهني، ومعالم الدهشة المحفِّزة نحو المعرفة بدأت ترتسم في مخيلتي.

طفل قتيل، ملقي في الصّحراء الشّاسعة، جثته مشوهة إلى حد كبير، أطرافه تعرضت للالتهام من أحد الوحوش.

فالثابت من الأوراق أنّ الجثّة كانت في حالة بائسة، الرأس مفصول عن الجسد، وقد التهمت ملامحها، الأطراف تعرضت للالتهام والافتراس أيضًا، لم يتبقَ من أطرافه سوى العظام؛ عظام الجمجمة، وعظام الذراعين، والساقين.

لم تكن تلك هي المفاجأة الوحيدة بين طيّات هذه الأوراق؛ فبعد أن تمّ التّحقيق في هذه الواقعة من قبل الشرطة والنيابة، لم يكن هنالك دليل واحد على أننا أمام جريمة جنائية.

وكل ما انتهت إليه التحقيقات، أنّ هذا الطِّفل قد تعرض إلى الالتهام من قبل الذئاب التي تسرح في صحراء هذه المنطقة الجبلية.

وتمّ حفظ القضية عند هذا الحد، مع مخاطبة الجهات البيطرية بالقيام بواجبها في تطهير محيط هذه المنطقة من تلك الحيوانات الشرسة.

لكنّ الغريب في الأمر أن التحقيقات لم تستطع أن تجيب عن كثير من الأسئلة.

إن هذا الطفل لم يكن متغيبًا عن منزله، بل كان نائمًا في سريره ليلة العثور على جثّته صباحًا، فكيف خرج من منزله إلى هذا المكان البعيد جدًا عن منزله؟! كيف سار ليلاً وسط الظلام المخيف إلى هناك؟! وكيف توقف عند هذه النقطة؟! ولماذا توقف عندها تحديدًا؟! وكيف انتهى به الأمر لقمة سائغة في أفواه الذئاب؟! أسئلة كثيرة بلا إجابة.

obeikan.com

الأغرب من هذا وذاك، تلك المفاجآت الّتي تابعتها في مزيد من الأوراق؛ فبعد حفظ هذه القضية، وأصابع الاتِّهام موجهة إلى الذئاب.

تكررت هذه الحادثة على مدار عامين أو أكثر قليلاً، بمتوسط كل شهرين أو أقل، يتعثر أحد المزارعين، أو أحد المسافرين، في جثّة طفل متآكلة إلى حد بعيد، مشوهة، ممزقة، ويكون الطِّفل من سكان هذه القرية تحديدًا.

وبذات الصورة، لم يكن مخطوفًا، أو تائهًا، ولا متغيبًا، بل في الليلة السابقة، كان كباقي الأطفال نائمًا في براءة ووداعة في سريره، يحلم بمستقبل قادم، وعالم أفضل.

نظرت في ساعتي مجدّدًا، فوجدتها تقترب من الثانية والنصف ظهرًا، لم أستطع أن أقاوم شغفي بهذه القضية، وذلك اللغز، ولكنني لم أعد قادرًا على استنشاق مزيدًا من رائحة الدِّماء دون أن أفعل شيئًا يُذكر.

فقد كان الحماس يملؤني، فتلك النّوعيّة من القضايا تستنفر قواي، وتستفز ملكاتي، كما إنها تثيرألمي وحزني.

فما ذنب هؤلاء الصِّغار في أن يضيعوا ضحية شيء غامض، ووحش مريب.

لا بد أن أكون هناك في أقرب وقت، ليس في صباح الغد، بل اليوم، الليلة.

قمت في نشاط من جلستي، لملمت أوراقي، ووضعت الملف في حقيبتي، وارتديت كامل ملابسي، ومن فوقها ذلك المعطف الأسود الثقيل الّذي أحضرته معي من الخارج، إنّه مناسب تمامًا لمثل هذه الأيام الممطرة.

نظرت إلى النافذة، فأبصرت السماء تبكي بكل قسوة، وكأنها تشعر بمدى الألم الّذي اعتراني، أو لعلها تنعي هؤلاء الصِّغار، الّذين قُتلوا دون جريمة أو ذنب اقترفوه. التقطت حقيبتي، ودلفت إلى خارج الحجرة، واتّخذت طريقي إلى خارج المبنى، متجهًا نحو عالم الذئاب.

●●●



obeikan.com

# العواء

الفقر هو أسوء الذئاب على الإطلاق، هو البيئة المناسبة الّتي يتكالب عليها الذئاب، ويمرحون فيها بكل نشاط وهمّة.

فمعادلة الذئب والحملان تتجسد في عالم الفقراء بكل جدارة؛ فالفقر يطارد كل الكلاب الوفيّة، يُخرسها، يجعلها غير قادرة على النباح، وغير قادرة على حماية القطيع.

ومن هنا تضيع كل القيم الّتي تحمي القطيع؛ فعندما تنعدم الرِّقابة، وتتراجع قيم الوفاء والإخلاص، ويسيطر البؤس والوهم عليهم، تتفكك عرى القطيع، وتجانسهم، وتكثر الحملان الشاردة، الّتي تمثل الحلقة الأضعف في المجتمع؛ ومن ثم يسهل التهامها من قبل الذئاب المتعطشة.

تلك هي الصورة الّتي ارتسمت في مخيلتي، وأنا منهمك في إعداد حقيبتي في المساء.

فبعدما أتممت قراءة الملف في حجرة مكتبي هذه، لم أقوى على الانتظار حتى الصّباح.

كان عَليّ أن أذهب إلى هناك في المساء، في الليل تحديدًا، قبل تباشير الفجر، فتلك فرصة ملائمة لتقييم مدى استعداد القوات هناك، مدى يقظتها.

إن الليل يرسم دائما صورة مختلفة للبشر، ولكنّها صورة صادقة إلى حد بعيد، فقد يتبتل المرء في الصباح، أو يجد، أو يعمل كنوع من النِّفاق والرياء، أو سعيًا وراء مكاسب ماديّة محضة.

أما في الليل، فالأمر مختلف، إن نغمة الغواية في الليل، تصبح أكثر تأثيرًا وقوة، ومن يحافظ على مسلكه الطيِّب ليلاً، فمن المؤكّد أنّه الملاك ذاته السارح في النهار.

أكملت ترتيب حقيبتي الضّخمة؛ ملابس مدنية عادية، تكفي لقضاء أسبوع أو يزيد، وبعض من الكتب الّتي ظننت أنني سوف أحتاجها هناك، في البحث الجنائي؛ علم النفس، وتاريخ هذه المنطقة، وسكانها، وطبائعها، والعوامل الاقتصادية والاجتماعية.

ورغم أنني خدمت في تلك المحافظة عندما كنت ملازمًا صغير الرتبة، إلاّ إنني حينها لم أكن بالنضج الكافي، بل أستطيع القول:

- إنني كنت منشغلاً عن تأمل أحوالها، بصخب المدينة الّتي أتيت منها، فقد كنت في أشد الضيق من سكانها، وأحوالهم المغايرة لسكان المدن، وذلك العالم المختزَل الّذي يعيشون فيه؛ ما بين أرض في الصباح، ونوم في المساء، فلا مجال للترف أو الرفاهية، ولا مكان للقضايا الكبيرة والصعبة في حديثهم.

كنت أرى الفقر ينطق في ملامحهم، وهيئتهم، لكنني لم أكن ذاك الفتى المهتم؛ كنت أمر على تلك الصور مرور الكرام، فالقضية بالنسبة لي عام أو أكثر في ذلك العالم النائي، ومن بعدها أنتقل إلى منطقة أفضل وأوسع.

لكن الآن وبعد مرور الأعوام، ومع اكتمال التجربة الحياتية، والّتي أصقلتها بالثقافة والشّغف بخصال البشر، أصبحت أنظر إلى الأمور من زاوية أخرى.

ارتديت معطفي الجلدي الطويل، ثم نظرت في ساعتي، كانت قد تجاوزت الواحدة صباحًا، إنّه موعد مناسب لكي أقوم بزيارة مفاجئة لزملائي هناك، وأعتقد أن الطريق لن يستغرق أكثر من ساعة ونصف، من محل سكني إلى هناك.

التقطت الحقيبة، وأطفأت الأنوار من خلفي، وأحكمت إغلاق الأبواب، وخرجت من ظلام مسكني إلى الظلام الأوسع.

وضعت الحقيبة في الجهة الخلفية من سيارتي، ثم قفزت إلى داخلها، وانطلقت إلى هناك، وفي عقلي معركة حامية؛ بين تأملات شجية، وأسئلة ملحة.

كنت أشعر بالأفكار في عقلي كما العواء! يا للغرابة، إن حالة الذئب تسيطر تمامًا على جوانب هذه القضيّة الملعونة، ولكن ربما

هذا هو الوصف المناسب؛ فالذئب يعوي في حالات محددة تقريبًا، فهو يعوي حينما يعلن عن مناطق نفوذه في مكان ما، إنها أشبه برسالة تحذير للجميع، إنّ هذا مكاني، وذاك موطني.

كما يعوي أيضًا في مواسم التزاوج، وكأنه يعلن عن فحولةٍ قد اكتملت.

كما يفعل الأمر ذاته في تكرار ما، وقت الشفق، عندما تبدأ الذئاب في رحلتها المسائية، نحو القنص والافتراس.

كذلك البشر، يمارسون ذات الصيحات، ولكن بصورة مختلفة؛ فعواء البشر وإن كان مختلفًا في شكله، إلاّ إنه يقترب من ذات المضمون، حينما يلجأ للعنف محاولاً الإعلان عن وجوده، أو حماية مناطق نفوذه، وحينما يلجأ للقتل أو الإيذاء طلبًا لمتعة، أو اقتناص حق مسلوب.

وكأنه هو أيضًا يمارس الصيد والقنص بصور أخرى، ولكن السؤال الملح هو: من الجاني في هذه القضية، ذئب حقيقي، أم من الذئاب البشرية؟

كان الطريق خاليًا في هذا المساء، وكنت منطلقًا بسرعة كبيرة، تماثل تلك الرياح العابثة من حولي في ذلك المساء البارد.

توقفت الأمطار منذ فترة لا بأس بها، ولكنّها خلفت عديد من البحيرات الصغيرة في الطرقات، ورغم خلو الطريق، إلاّ إنني كنت أشعر بأن العالم ضيِّق ومزدحم من حولي.

مزدحم بالأفكار والهواجس، تلك البحيرات الّتي كانت تتمزق تحت إطارات سيارتي، ذكرتني بتلك البحيرة البعيدة، عجيب أمر هذه المحافظة حقًا، تشعر وكأنما قد كُتب عليها الفقر، فالغني الوحيد الّذي يَذكره التاريخ في تلك المنطقة، قد خُسفت به الأرض بعدما طغى وتجبر، وظن في نفسه العلم والذّكاء، فإن هذه المحافظة تعد من أكثر المحافظات فقرًا في الوطن، وأليست تلك هي البيئة المناسبة للذئاب كما ذكرت؟!

تفاديت تلك الشاحنة المزعجة الّتي كانت تترنح أمامي في الطريق، اللعنة على سكارى الليل، وحمقى الظلام المقيت.

أشعلت لفافة حارقة، وأخذت أنفث دخانها، وأنا جالس خلف المقود المتأرجح، كنت قد قطعت نصف المسافة تقريبًا نحو وجهتي؛ فالطريق إلى مدينة السادس من أكتوبر لم يعد بعيدًا، وتلك إشكالية أخرى أخذت أفكر فيها، فتلك القرية المنكوبة، الّتي يُطاردها ذئب خفي، تقع على امتداد تلك المدينة الناشئة، الجديدة في ملامحها، وسكانها أيضًا، إنّ احتكاك المدينة بالقرية، إنما هو أشبه باحتكاك عملاق ضخم، بقزم ضئيل، ذلك العملاق حينما

obeikan.com

يتحرك ويتوسع ويتوحش، تكون خطواته بمثابة الزلزال الّذي يهز الأرض أسفل أقدام ذلك القزم الوديع.

وتلك المدينة الجديدة، قد تُصعِّب من مسيرة البحث عن الجناة، فالمدن حينما تنشأ، تكون بمثابة دعوة مفتوحة لطالبي الرزق، وللمرتزقة أيضًا؛ عمال من كل مكان، مقاولين، وأثرياء جدد، وقناصي الفرص، ماذا لو كان الجّاني أحد هؤلاء، قادم من عالم بعيد، وبأخلاقيات جديدة. ماذا لو أنّه قد أتمّ بالفعل كامل جريمته، وكما يظهر في الأوراق لم يترك وراءه أثرًا يُذكر، سوى عواء يتردد صداه في الفضاء، ثم رحل بعيدًا، ترى هل سيعود؟ هل سيطبق القاعدة الذهبيّة الثانية؟

إن المجرم دائمًا ما يحوم حول مسرح جريمته، مهما طال الزمن!

مضى الوقت بي حتى اقتربت أخيرًا من قسم أول أكتوبر، توقفت كثيرًا في الطريق للسؤال عن وجهتي، وكان من الصّعب وسط ظلام الطريق، أن أجد أحدًا لكي أسأله، ولكنِّي وجدت غايتي في حُرّاس الليل؛ الّذين يُوصفون بالغفر، فعادة ما يجلسون في الليل، بين الجدران الخرسانية الحديثة، يُشعلون النِّيران، لكي يطردوا بها أرواح الظّلام الشريرة، وعفاريت الصقيع العابثة.

توقفت أكثر من مرة في طريقي، الّذي كان يعج بمئات البنايات الّتي تصعد حديثًا بجدرانها الحمراء صوب السماء، حتي وصلت أخيرًا إلى بوابة القسم، الراقد منيرًا وسط الفراغ المظلم.

توقفت بسيارتي على بعد أمتار منه، ثم التقطت الملف من المقعد المجاور لمقعد السائق، ترجلت من سيارتي، وأحكمت إغلاقها، أشعلت لفافة جديدة، والّتي باتت تلمع كجمرة ضئيلة وسط الظلام، مع كل شهيق جديد من فمي.

وسرت بكل هدوء نحو الجندِّي الواقف حارسًا أمام بوابة القسم، أقبلت عليه، فتنبّه إليّ في كسل، فقد قاربت الساعة على الثالثة صباحًا.

بادرته قائلاً:

- البيه المأمور موجود يا بني؟

نظر إليّ بنظرة ملؤها البلاهة قائلاً:

- لا، لكن من أنت؟ وماذا تريد في هذه الساعة؟

أخبرته في هدوء، أنني الرائد/ أنور النواوي، من مصلحة الأمن العام، انتفض الجندِّي في اهتمام، مؤديًا التّحيّة العسكريّة في حرارة قائلاً:

- أهلاً يا فندم.

سألته وأنا أنفث دخان لفافتي:

- من المتواجد حاليًا بالقسم من السّادة الضباط؟

أجابني على الفور:

- عصام بيه، معاون المباحث يا فندم.

أجبته مربتًا على كتفه:

- حسنا حسنا، استرح.

ثم اتخذت طريقي إلى داخل القسم، وفي جعبتي مئات الأسئلة الّتي تستحق السهر حتى الصباح.

●●●

obeikan.com

# موعد مع الشّكوك

دلفت إلى داخل القسم في هدوء، حتى رأيت أمامي بعض من أمناء الشرطة الغافلين على مقاعدهم، في نوبة نوم حذر، شعر أحدهم بقدومي، فهبّ إليّ في تكاسل قائلاً بوجه عابس:

- خير اللهم اجعله خير.

إلاّ إنني أجبته بابتسامة سمجة قائلاً:

- أين يوجد مكتب عصام بيه من فضلك؟

أجابني في برود:

- عصام بيه نائم، أي خدمة؟

مللت سماجته؛ فأخرجت خطاب المأمورية المكلّف بها، نظر إليها في اهتمام، ثم أعقبها بتحية عسكرية نشطة، ثم سار بي قائلا:

- إن مكتبه في الطابق الثاني، تفضّل يا فندم، تفضّل.

سار أمامي على درجات السّلم، حتى وصلنا إلى غرفة معاون المباحث، كانت اللافتة المعدنية تلمع أمامنا.

obeikan.com

همّ الأمين بطرق الباب، إلاّ إنني منعته من ذلك، وأمرته بالانصراف؛ فأنا أولى منه بهذه الطرقات، فعصام بيه، أو الرّائد/ عصام الدسوقي، هو أحد أعضاء دفعتي الميمونة بكلية الشرطة، وهو تجسيد حي للصورة النّمطية لضابط الشّرطة، ورجال المباحث تحديدًا.

ضخم البنية، وفارع الطول، وأجش الصوت، وعظيم الوجه والصوت، وخمري البشرة، وعليك أن تكون حذر معه في نوبات الغضب، فإنه يتحول إلى كائن خارق، هذا علاوة على لسانه البذئ تمامًا؛ ربما من كثرة مخالطة أرباب السوابق، ولكنّه مع ذلك، كان ذا روحًا مرحة، ونفسًا طيبة؛ سرعان ما يغضب، وسرعان ما يصفو.

طرقت الباب في هدوء وتأدب، كنت أسمع صوت التلفاز قادم من داخل الغرفة، صوت عال وصاخب.

طرقت الباب مرّات أخرى بشكل أعنف، لكن لم يكن هنالك رد يُذكر، تصورت أنه لا يسمع صوت الطرقات رغم حدتها بسبب ذلك التلفاز الصّاخب.

أدرت مقبض الباب، ودلفت إلى الداخل في تمهّل، كانت الحجرة عادية جدًا؛ مكتب تعلوه عديد من الأوراق والأقلام،

ولافتة خشبية حُفرت فيها الاسم والرُّتبة، ومقعدين أمام المكتب، وأريكة في جانب الحجرة، وباقي الحجرة فارغة إلاّ من بساط رخيص، ومتسخ بشكل غريب!

لكني لاحظت وجود باب آخر على يسار المكتب، كان صوت التلفاز يشع من خلفه، لا بد أنه بالداخل، وصلت إلى حدود الباب الآخر، وطرقته في هدوء أيضًا، ولكن بلا جدوى، اللعنة، لا بد أنه نائم، دلفت إلى الداخل في حذر، ورأيته بالفعل يغطُّ في النّوم كما الأطفال، حينما يرهقهم كثرة اللعب. نائم بملابسه الكاملة؛ القميص، والبنطال، وبلوفر شتوي أسود، وحذاء ضخم يناسب أقدامه المتضخمة، والسلاح في جانبه.

كان راقدًا على أريكة عريضة، وفي مواجهته ذلك التلفاز المزعج، كان تلفاز متهالك، عال الصوت، ولكنّه مضطرب الصورة.

والحقيقة، لقد كانت هذه فرصتي المثالية لممارسة سماجتي عليه؛ أن أوقظه بصورة صادمة، تزيح النوم اللذيذ عن أشفاره المهتزة.

إن نقطة ضعف أي رجل عسكري هو: سلاحه الميري. اقتربت من جثمانه المهول، ثم مددت أناملي بحدة، نحو سلاحه الرّاقد في جانبه، فهبّ قائمًا في فزع، وهو يصيح:

- مين؟!

إنه لم يستيقظ فقط، بل تحول إلى كمن أصابه المس؛ ففي ثوانٍ كان واقفًا على الأريكة، مضطرب العينين، واضعًا يده على سلاحه، كما المرأة التي تُدافع عن شرفها المهدّد.

أخذ عدة ثوانٍ أخرى، لكي يستوعب في مخيلته، صورة الغريب الواقف أمامه، ثم أطلق زفيرًا قويًا، صائحًا:

- هو أنت؟! يا ابن...

قاطعته ضاحكًا، ثم قلت:

- أما زال لسانك أطول من قامتك؟ هذه المرة كنت أمازحك، في المرة القادمة سوف أجردك من سلاحك بالفعل، دون أن تدري أو تشعر.

مددت يدي إليه قائلاً:

- انزل انزل، فلن تظل معلقًا هكذا طوال الليل، إنّ هذه الوضعية بها خطورة على رقبتي الّتي تُعاني من الخشونة بفعل الأجواء الباردة.

مضت دقائق قليلة وأنا في انتظاره على أحد المقاعد الملقاة في إهمال أمام مكتبه، عندما كان صديقي يغتسل في الحمام، علّه

يُفلح في التّخلّص من آثار التشنّج الّذي أصابه بعد موجة من المزاح السمج.

في تلك الأثناء كنت بدأت أشعر بمعالم التعب والإرهاق؛ فالتفكير في هذه القضية استنزفني، ولم يمنحني رفاهية الغفوة خلال ساعات اليوم الطّويلة.

وضعت الملف على المكتب من جواري، وقرّبت الكرسي الثاني من أمامي، ثم رفعت ساقي عليه، واتخذت وضعية مائلة، ثم أغمضت عيني قليلاً، لكن وقع خطوات صديقي، لم تمنحني أيضًا الفرصة لغفوة ولو قليلة.

أقبل عليّ منشرحًا، وهو يجفف رأسه المبتلّة بمنشفة عتيقة، حوّلت شعره من فوق رأسه إلى عشب أسود متشابك، ثمّ ربّت على كتفه بضربة قوية قائلاً:

- واللّه زمان، فاكر أيام زمان؟

ضحكت في مرح بعدما اعتدلت، ثمّ قمت للسلام عليه مجدّدًا، كان أطول مني بعدة سنتيمترات، ولكنّه أعرض مني بكثير، وتبادلنا الأحضان، ولم يفوت الفرصة في أن يضغط على ظهري؛ لكي يرد لي المزاح السمج، تراجعت قليلاً، وعدت إلى مقعدي مجدّدًا قائلاً:

- هل تذكر ما مضى حقًا؟ حينما كنت حكمدارك في الكلية، وكنت أمارس عليك سطوتي؟

نظر إليّ ضاحكًا وهو جالس على مقعده في صدارة المكتب، ممسكًا بفرشاة ومرآة صغيرة، أخرجهما من أحد الأدراج ثم قال:

- هذه هي المهزلة بكل تأكيد، أنت تكون حكمدارًا عليّ!

ثم قال في جدية:

- ولكني لا أنكر أنك كنت من المتفوقين دائمًا، أما أنا فكنت من سكان الصفوف الأخيرة.

ثم قال في سرور وهو يصفف شعره:

- حسنًا هل تمانع في قدح من القهوة؟ أم نأتي لك بعشاء فاخر؟

ابتسمت في تعب صائحًا:

- أرجوك، كوب كبير من القّهوة المركّزة.

ضغط على الزر من أمامه ضاحكًا:

ثوان وسوف يكون أمامك برمِيل من القهوة -وهو يتابع واللّه زمان يا نواوي-



obeikan.com

أُحضرت القهوة بواسطة جندي ناعس، قدّمها إلينا، ثم مضى، ثم مرّرت لفافة إلى صاحبي، أشعلها وهو ينظر إليّ في حيرة قائلاً:

- حسنا، ما سر زيارتك لنا في هذه البقعة النائية؟! لا تقل لي أنك اشتقت لي، ولا تمارس عليّ ذلك النوع من الابتزاز العاطفي.

أخذت أرتشف رحيق لفافتي مبتسمًا ثم قلت:

- في الحقيقة إنني اشتقت إليك كثيرًا بالفعل، ولكن ليس هذا هو سر زيارتي، وأظن أنّ ضابط مُحنّك مثلك، لا يخفى عليه السر من وراء حضوري إلى هنا.

تغيرت ملامح وجهه إلى الجدّية، ثم مال بجذعه نحو المكتب، وهو يلتهم لفافته في تركيز، ثم قال:

- إنني من المؤكد أعرف السِّر؛ فلقد نُقلت إلى هنا حديثًا منذ ثلاثة أشهر من أجل القضية ذاتها، وحتى الآن لم أعثر على أي شيء جديد، إن الأمر يشبه البحث عن إبرة في كومة قش كثيف.

ثم نظر إلى الملف من أمامي قائلاً:

- هذا هو ملف القضية، أليس كذلك؟



obeikan.com

أجبته:

- بالطبع.

نظر إليّ باهتمام قائلاً:

- حسنا، وماهي ملاحظاتك عليها؟

أجبته ضاحكًا:

- أفضل أن تحدثني أنت عن ملاحظاتك ومشاهداتك في الفترة الماضية.

انطلق صديقي في الحديث قائلاً:

- منذ أتيت إلى هنا كما أخبرتك، لا جديد بخصوص هذه القضية، إنّ هذه القرية تقع على حدود مدينة ومحافظة أخرى، إنّها معلقة في الفراغ، وتعاني من فراغ أمني، فلا يوجد هناك من تواجد شرطي، سوى مجموعة من الغفراء المتهالكين، وفي الحقيقة إنهم لا يصلحون لشيء على الإطلاق، سوى السّهر مساءً حول النيران المشتعلة، والتسكع في الطرقات ليلاً، وحتى هذا الأمر صعب إلى حد كبير، فتلك القرية في السنوات الأخيرة باتت تتوسع بشكل كبير، وبها كثافة سكانية عالية، يحيط بها مساحات صحراوية كبيرة، ومساحات أخرى بها بعض المزروعات

obeikan.com

والحقول، أغلب سكانها من المزارعين، ولكن هنالك قدر لا بأس به يعمل بالخارج؛ بعد موجات من الهجرة غير الشرعية، وهنالك آخرون يعملون في الحرف المختلفة، هنا في مدينة السادس من أكتوبر، القرية بها مجموعة مدارس، ووحدة صحية كبيرة، وكل هذه الأشياء أُنشئت حديثًا، منذ أكثر من ثلاث سنوات، بعد زيارة لوفد من منظمة اليونيسيف إليها، وأنت تعرف تَجَمُّل الساسة في بلادنا أمام المنظمات الدّوليّة؛ سريعًا ما أنشأوا هذه المباني لتجميل وجوههم، ولكنها لا تؤدي خدمات حقيقية، أو عالية المستوى؛ المستوى الصحي والتعليمي للناس فيها متدهور للغاية.

قاطعته في اهتمام وأنا أرتشف نوبات القهوة المنعشة:

- كل هذا جميل ورائع، ومفيد جدًا، ولكن ما هو انطباعك عن الجريمة؟ هل تعتقد حقًا في نظرية الذئب الّذي يُهاجم الأطفال؟ أم ترى أن هنالك شبهة جنائية؟

ضحك في ذهول وقال:

- الحقيقة يا صديقي، إنني بدأت أؤمن بثرثرة الأهالي في هذه القرية، فأن يختفي أكثر من عشرين طفلاً في ظروف غامضة على مدار عامين أو أكثر، ثم يتم العثور على جثثهم في الصّحراء، ممزقة بفعل أنياب حيوان مفترس، أمر غاية في الغرابة،

التحقيقات لم تفضِ إلى شيء، البحث لم يؤدِ إلى شيء! وكل هذا أدّى إلى غضب الأهالي العارم، ونشر حالة من الرُّعب والفزع بينهم، وراحوا يفسرون الجريمة بتفسيرات خرافية؛ ما بين لعنة أصابت القرية.

واستطرد ضاحكًا:

- ولعنة الفراعنة تحظى بنصيب الأسد، وآخرين يرون أنه فعل دجّال أثيم يقيم معهم، والنداهة...

قاطعته مقهقهًا:

- وما رأيك في هذا كله؟ هل تعتقد أيضًا في مثل هذه التبريرات؟

زفر في ضيق وقال:

- كل ما أعرفه أن الأهالي يكادون يفتكون بنا من الضيق والذعر، والقيادات في الوزارة تلح علينا في بذل مزيد من الجهد، بالإضافة إلى التفتيشات والزوار والقلق، الحياة هنا جحيم، ولعلها بالفعل لعنة قد أصابت الجميع.

ثم قال في توسل مصطنع:

وبما أنك ساحر قديم في مضمار الجرائم والناس، أرجوك أن تساعدني في حل طلاسم هذه اللعنة.

أخرجت خطاب المأمورية من الملف ثم مررته إليه، وأنا أضحك قائلاً:

- إنني بالفعل من أجل هذا الأمر كما ترى.

ثم قلت في جدية:

- ولكنني أريد تعاونًا إلى أقصى الدرجات، مهما كانت طلباتي غريبة أو شاذّة، فهل هذا متاح؟

أجابني في انشراح:

- أنا تحت أمرك أيها الساحر العظيم، من أول الديك اليتيم، وحتى لبن العصفور الكامل الدسم.

ضحكنا سويا بشدة، حتي قاطعني بقوله:

- ولكن قل لي ما رأيك أنت؟ هل تؤمن بنظرية اللعنة هذه؟ أجبته متفلسفا وأنا أشعل لفافة جديدة:

- إنني لا أستبعد أي احتمال على الإطلاق، ولكن لدي عديد من الشكوك والأسئلة، والإجابة عنها سوف تكون مفيدة للغاية.

قاطعني في دهشة:

- أسئلة مثل ماذا؟



obeikan.com

نظرت إليه في تحاذق قائلاً:

- لقد لاحظت إهمالاً شديدًا في التحقيقات، وسامحني فيما سأقول، وجدت إهمالاً أكبر في التحرّيات، وإلاّ بماذا تفسر أن كل الأطفال المقتولين أو المفتَرسين من الذكور فقط!

أليس هذا أمر غريب؟ والأغرب أنهم جميعًا ما دون سن البلوغ! والأدهى من ذلك أن كل الجثث تكاد تتشابه في شيء واحد، أن أعضاءهم التناسلية مفقودة، مبتورة، منتزَعة، لست أدري!

قاطعني صاحبي في اهتمام:

- يا إلهي، إنه أمر غريب حقًا، ولم ألتفت إليه قط! ولكن في اعتقادك ما السر وراء هذا الأمر؟!

ابتسمت وأنا أنظر في ساعتي، وقد بدأ النوم يجتاح مقلتي، ثم وقفت وأنا أقول له:

- هذا أمر سوف نستكمله بعدما أنام في حجرتك ساعتين أو أكثر.

هب في فزع قائلاً:

- تنام بالداخل! وأين أنام أنا إذن؟



obeikan.com

أجبته ضاحكًا وأنا على مشارف حجرته:

- عليك أن تظل متيقظًا، حتى لا أسطو على سلاحك هذه المرة دون رحمة أو شفقة.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# على أرض الذِّئاب

استيقظت في الصباح على صوت تصفيق حاد من كف أعرف آثاره جيدًا، ومع موجات التصفيق كانت تتواتر صيحات عالية:

- أنور، أنور، قوم يا بني آدم!

فتحت عيناي بصعوبة، فوجدت رفيقي العملاق يقف أمامي، وكأنه يحجب نور الشمس عن موضعي، اعتدلت بصعوبة من أثر صداع كان يطنُّ في رأسي كما النحلة المزعجة، نظرت في ساعتي وكأنها البوصلة الّتي أحدد بها موقعي من الحياة، ثم رفعت رأسي نحو رفيقي باسما، ثم بادرته قائلاً:

- لقد تيقنت تمامًا أن هذا المكان عامر باللعنات.

وقلت وأنا أدلك عنقي في تألم، وألفُّ جذعي يمينًا ويسارًا:

- فهذه الأريكة وحدها لعنة قاتلة، إنها لا تصلح لنوم البشر، بل تصلح...

قاطعني مسرعًا قائلاً في مزاح:

- ماذا؟ هل ستمارس وقاحتك هكذا دون فطور؟ هذا أمر ليس بصحِّي على الإطلاق، فلتملأ معدتك أولاً، ثم أطلق للسانك العنان.



obeikan.com

ثم أمسكني من يدي، وجذبني بقدر ليس بقليل من الغباء قائلاً:

- هيا، قم واغتسل؛ فهنالك فطور عالمي ينتظرك بالخارج، هيا، لا تكن كسولاً.

قمت من مضجعي بصعوبة، فالوقت ما زال مبكرًا جدًا، إنها الثامنة صباحًا تقريبًا، وتلك الساعات القليلة الّتي قضيتها على هذه الأريكة اللعينة، لم تمكنني من النوم جيدًا؛ فما بين معاناتي في تلك التضاريس التي تسكنها، وعقلي الّذي ظل دائر في دوامة تلك القضية، أظن أنني لم أكد أغفو إلاّ دقائق قليلة.

توجهت إلى الحمّام بعدما التقطت تلك المنشفة البائسة، كان الصداع يدوي في عقلي كقنبلة عنقودية ما تنفك أن تنفجر تباعًا بلا رحمة، فتحت الصنبور، فوجدت الماء باردًا إلى درجة الجليد، ولكنني كنت بحاجة ماسة إلى حمام كامل، حتى أستعيد لياقتي الذِّهنية، استجمعت مخزون الشجاعة في جسدي، بعدما أهملت ملابسي، ثم قفزت تحت شلال المياه الباردة، وأنا أنتفض كطير ذبيح، كان هذا الحمام أشبه بجريمة اغتصاب صباحية؛ اغتصاب لأعصاب رجل منهك، وخلايا شخص متعب، ولكني بعدما فرغت منه، وجاهدت كثيرًا في ارتداء ملابسي؛ من شدة الرجفات الّتي

استمرت دقائق عديدة، جعلتني أتوجس مما فعلت، فقد بات الشك ينمو بداخلي، بأنني قد أُصبت بمرض باركنسون المجنون، فهؤلاء المصابون بهذا المرض الخطير، يجبرون على الموت رقصًا، يمارسون الرّقص حتى الموت، كما كان يفعل المماليك في خصومهم، في وصلة تعذيب وتجريس قد تصل حد الموت، ولكن جاءتني النجدة من السماء على صوت رفيقي الأجش وهو يصيح:

- أسرع يا سيادة المقدم، فقد أُحضر الفطور.

فذلك الصوت ساعدني على الفكاك من تلك الارتعاشة المتتابعة، وبعدها دلفت إلى الخارج، وجدت وليمة لا تقاوم؛ إناء من الفول الغارق في الزيت الحار، وفلافل يشع منها البخار في غواية، وبصل، وخضراوت، وأرغفة طازجة.

كان الأمر مغريًا تمامًا، سألت صاحبي:

- أين فرشاتك التعيسة؟

أشار لدرج مكتبه، وهو يلتهم الطعام في نهم قائلاً:

- هناك، أسرع، فلست مسؤولاً عن نفاد الطعام.

بادرني بالقول بانشراح ،وهو منهمك في الطعام بعدما جلست أمامه:

obeikan.com

- حسنًا يا صديقي، بما أنك مُنتَدب لهذه القضية، فهي منذ الساعة ملكك، خذها بعيدًا عني، فقد آرقتني إلى حد الجنون، هي تحت أمرك منذ اللحظة.

قاطعته في برود، وأنا ألتهم لقيمات من الفول اللذيذ قائلاً في سخرية:

- الآن فقط أدركت سر هذه القضية، وعَجْز الجميع عن سبر أغوارها.

ترك رفيقي الطعام من يده، ونظر إليّ في دهشة وشغف قائلاً:

- هل هذا معقول؟ هل استطعت في هذا الوقت الوجيز أن تفك شفرتها المعقدة؟

أجبته في تصنع:

- بكل تأكيد.

سألني في شغف:

- حسنًا، وماهو ذلك السبب؟

obeikan.com

أجبته ضاحكًا وأنا ألتهم مزيدًا من الفول:

- إن السبب واضح جدًا، فعندما يكون الفطور بهذا الشكل في كل صباح، فمن المؤكد أن الجميع سوف يُصاب بغيبوبة مستديمة، تمنع أكثر الناس عبقرية، من التفكير أو التدبر. نظر إليّ في غيظ مكتوم، وقد أحس بالخديعة قائلاً:

- نعم، لقد نسيت أنك بريطاني النزعة، وأعتذر على إنني لم أقدم لك الكعك الإنجليزي، وفنجان الشاي، على الطريقة ذاتها، أليس هذا ما تربيت عليه؟ يا ابن...

قاطعته قائلاً:

- هل ستعود للوقاحة من جديد؟

أكمل قائلاً:

يا ابن الأثرياء.

وبينما هو ينطق جملته الأخيرة، حتى دلف إلى داخل الحجرة، ضابط شاب، مليح القسمات، دقيق الوجه والبنية، متوسط الطول، يبدو من شعره القصير، أنه ناعم بشكل لافت، ذو عيون سوداء في ضيق، وأنف حاد، وفم رقيق الشفتان، صائحا وهو يرتدي حلته الرّسمية، ذات اللون الكاكي، وقد وضع الكاب تحت كتفه:



obeikan.com

- صباح الخير يا قائد.

لكنه انتبه إلى وجودي معه، فاستدرك معتذرًا:

- آسف للمقاطعة، لم أكن أعرف أن معك بعض الصُّحبة.

صاح فيه عصام وهو يومض بأصابع يده في استدعاء ملح قائلاً:

- لا تقلق، الدار أمان، تفضل.

ثم التفت إليّ قائلاً:

- هذا ثري آخر، من بني جنسك، من أنصار الشوكة والسكين.

ثم قال:

أقدم لك الرائد/ أنور النواوي، وهذا الشبل المبشر هو الملازم/ صلاح الدين شكري، منضم إلى الخدمة حديثًا.

تبادلنا التّحيّة، وكنت قد انتهيت من تناول الطعام، وجلسنا بعد تعارف قصير، في انتظار الشاي بكل شغف بعد تلك الوجبة الدسمة.

أُتي بالشاي بعد دقائق، واستقر عصام على مقعده خلف المكتب، في حين جلست أنا وصلاح متواجهين في المقعدين الراقدين أمامه.

نظر إليّ عصام بجدية، بعدما تقمّص شخصية الضابط المنخرط في العمل قائلاً لي:

- حسنًا، دعك من مزاح الصباح، أريد أن أفهم منك ماذا تريد تحديدًا في هذه القضية؟ عدد الأفراد المعاونين؟ التسهيلات؟ حتى أنظم أموري، وأكمل ترتيباتي.

ثم قال ضاحكًا وهو يرتشف الشاي:

- وأرجو أن تشرح لي ذلك سريعًا قبل أن أصاب بالغيبوبة من جراء وجبة الصباح.

مرّرت لهما لفافتين، في حين اعتذر الملازم الصغير عن قبولها؛ لكونه من غير المدخنين، ثم بادرته قائلاً:

- أظن أنني بحاجة إلى شخصين، ليس في كل تحركاتي، ولكن يجب أن يكونا متفرغين لمدة أسبوعين أو أكثر، على أن يكون هذين الشخصين، ممن يعلمون بأهل هذه القرية جيدًا.

نظر عصام إلى صلاح بنظرة خبيثة قائلاً:

- أظن أنني إذا ما عرضت على سيادة الملازم أن ينضم معك في التحريات، فلن يمانع أبدًا.

قالها وهو يضحك بملء فمه، في حين شعرت أن هناك سر خفي يربط ذلك الملازم بهذه القرية، فقاطعته متصنعًا السذاجة:

- ولكني لا أظن أن السيد صلاح خبير بهذه القرية، فقد خدمت مثله وأنا ملازم صغير في المحافظة ذاتها، وأعرف كم هو الأمر شائق على أبناء المدن المرفهين مثلنا، أظن أن سيادة الملازم ما ينفك يعد الساعات حتى يعود مسرعًا إلى القاهرة.

أفرط عصام في الضحك هذه المرة وهو يقول:

- على العكس من هذا يا صديقي، بل إنه يتصيد الحجج حتى يذهب إلى هذه القرية.

لاحظت موجات من الخجل الأحمر تجتاح وجه الضابط الصغير، ثم قلت:

- لا بد أن في الأمر حالة عشق ما؛عشق للبشر، أو عشق للمكان.

قاطعني عصام:

- عن أي مكان تتحدث؟! لقد قلت لك إنه مكان ملعون، ولكن عندما يتعلق الأمر بأميرة حسناء، فالعشق ممكن.

ثم قال بابتسامة خبيثة:

- بل مطلوب جدًا، ولكن المخيب للآمال: أن يحب المرء امرأة أكبر منه، ومع اعترافي بجمالها، لكنها أيضًا منغلقة إلي حد كبير، إن سكان القرية يسمونها: الراهبة، أي شقاء هذا؟!

مضى بعض الوقت، والضابط الصغير يتلقى كلماتنا في خجل، ولكن شعرت فيه رومانسية، وقدرًا كبيرًا من التأمل، قد يساعدني في حل هذه القضية، فنظرت إليه في جدية قائلاً:

- دعك من قصص العشق، وحكايا الرُّهبان،هل لديك استعداد أن تعمل معي في هذه القضية؟ إن العمل معي شائق، وغريب؛ فأنا أعمل بشكل مغاير لنمط التحرّيات الرسمية، فالأمر عندي أقرب إلى نظرية المحقق الخاص، أو التحدي الخاص.

قاطعني عصام وهو يُحدِّث صلاح قائلاً:

- إن الرائد/ أنور من أمهر الضباط في عالم الجريمة، وسوف تستفيد منه استفادة مضاعفة؛ أولا: سوف تتعلم كثيرًا، ثانيا: سوف تجد الفرصة لكي تتقرب إلى إيمان بصورة أكثر.

ثم قال وهو يضحك:

- فربما تُفلح في لفت انتباهها، وإن كنت أشك في ذلك.



obeikan.com

التقطت خيط الحديث مجدّدًا فقلتُ للضابط:

- دعك من سخرية قائدك، قل لي ما رأيك؟

أومأ برأسه بالإيجاب وقال:

- أنا رهن إشارتك منذ اللحظة.

أجبته:

- رائع، حسنًا تخيّر أحد الأمناء الّذي تثق في ذكائه، واجعله تحت تصرفك وتصرفي منذ اللحظة.

نظرت في ساعتي، فمنذ الساعة العاشرة صباحًا، أصبحنا فريقًا واحدًا، لمهمة واحدة هي: الإمساك بالذئب، أيًا كان شكله أو صورته.

●●●



obeikan.com

# الجوكي

جلست في سيارتي بعد تلك المحادثة الصباحية الماضية، في انتظار ذلك الضابط الصغير؛ لنبدأ رحلة البحث عن الإجابات.

أشعلت لفافة جديدة، وأدرت المذياع على بعض الموسيقى الكلاسيكية، وفتحت باب العربة إلى جواري، وأخرجت ساقي ليلامس الأرض في قلق.

كنت أشعر بالتوتر، وربما التّحفز، فتلك الحالة دائمًا تلازمني عند كل قضية جديدة؛ دائمًا تنتابني مع الخطوة الأولى في الطريق الطويل، ذلك الطريق الذي كثيرًا ما يكون مظلما، داميًا، ومخيفًا، وصادمًا.

في أحيان كثيرة كنت أشعر أن هنالك روح ما تتلبسني في رحلة البحث عن الجناة، روح طيبة بطبيعة الحال، تُملي عليّ بعض الأسئلة، تدفعني دفعًا في اتجاهات ربما قد أحجم عن السير فيها، تنير لي أضواء خافتة، تومض بكل سرعة كالشهب في قلب النفق المظلم، في أحيان كثيرة، لا أعرف مبررًا لاختياراتي أو ميولي ودوافعي من وراء ذلك كله! كل ما أعرفه أنني أجد نفسي أتصرف هكذا، البعض يظنني ذكيًّا، ولكن هنالك فارق بين الذكاء والإلهام.



obeikan.com

أعتقد أنني قادر على التقاط دوائر الإلهام فقط، أو ربما القدر يسوق أمامي اسبابًا، أتعلق بها كطوق النجاة في قلب محيط مضطرب، وذلك الضابط الصغير، من الوهلة الأولى الّتي رأيته فيها، أدركت أنه سيكون مفيدًا جدًا لي في حل القضية، مفيد لماذا، أو في ماذا؟ لست أدري، فتلك أمور بحاجة لقَدْر من التدبر، ولا وقت لي لذلك الآن.

برز على البعد ذلك الضابط الشاب بملابسه المدنية، كان وديعًا للغاية في ملابسه الكاجوال، لا يفرق كثيرًا عن أي مراهق يسير في شوارع المدن المزدحمة، كانت بنيته نحيفة إلى حد ما، وملامحه الهادئة لا تدل أبدًا على أنه ذلك الضابط الذي ربما يعامل المواطنين بقسوة، أو عجرفة، أو الضابط ذاته الذي يمسك بسلاح قاتل، ربما يستعمله ليصيب أو ليقتل.

وصل على حدود سيارتي، وقد رسم على وجهه ابتسامة طفولية، شعرت أنه أكثر مرحًا هذه المرة، واكثر انطلاقًا، وكانما تخفف من حمل ثقيل!

دعوته إلى الركوب إلى جواري في السيارة، أغلقت الباب أنا أيضًا، وأدرت محركات السيارة وانطلقنا سويًا.

obeikan.com

مضت السيارة في الطريق، ولم أشأ أن أكْسر حاجز الصمت بيننا بمبادرة مني، فإنني من النوع الذي يحب أن يفهم طبيعة من يعملون معهم؛ مراكز قوتهم، ومناطق ضعفهم، .... لهذا آثرت أن أصمت، مستمعًا للموسيقى المتصاعدة من المذياع، بانتظار كلماته أولاً، وبالفعل لم يستغرق الأمر وقت طويل، فقد بادرني في نشاط قائلاً:

- سيدي، لماذا طلبت مني أن أبدل ملابسي الرسمية بأخرى مدنية؟

أجبته بعدما أشعلت لفافة من التبغ وأنا أحول دفة الحوار باتجاهه:

- وما رأيك أنت؟ هل هكذا أفضل؟

تردد الشاب قليلاً، ثم أجاب:

- أفضل من أية جهة؟ التحقيقات، أم بالنسبة لي؟

صدرت مني ضحكة مفاجئة، قائلاً في مرح:

- رائع، إنني أحب هذا النمط من التفكير، وأريد أن أعرف وجهة نظرك من جميع الجهات.

استرخى صلاح على كرسيه، بعدما تخلص من توتر اللقاء قائلاً في تحذلق:

- اعذرني سيدي، فإنني لا أرى الأمر جيدًا بالنسبة لسير التحقيقات، فجميع أهل هذه القرية يعرفونني، ولذلك فلا داعي للتخفي، والبدلة الرسمية، تعطي انطباعًا بالسلطة، يكون أكثر تأثيرًا في التحري والتساؤل.

قاطعته في دهاء:

- وبالنسبة لك هل أنت من عشاق التفاخر بالملبس الرسمي مثلا؟!

أجابني بعد تنهيدة حارقة:

- على الإطلاق، بل إنني أشعر أن الحلة الرسمية، أشبه بالقيد الخانق، والعبء الثقيل.

ثم استطرد بعد لحظة من الصمت:

- إنني هكذا أفضل، افضل كثيرًا.

شعرت من نبرة ذلك الشاب بقدر كبير من المرارة، وتأكد ظني تمامًا، إنه غير راضٍ بعالمه أو واقعه، وربما ليس مقتنعًا بوظيفته بالشكل المطلوب، لهذا بادرته:

- قل لي يا صلاح، هل دخلت كلية الشرطة برغبة حقيقية منك أم لا؟



obeikan.com

أجابني بكل سرعة:

- لا، لم أرغب في يوم من الأيام أن أكون ضابطًا.

ثم تابع في شجن:

- بل لم أحلم بهذا على الإطلاق من قبل.

قاطعته في دهشة متسائلاً:

- لماذا؟!

أجابني وقد تشنجت تعابير وجهه:

- إنني شاب من عائلة ثرية، والدي يملك مصنعًا للأدوية، وأنا ابنه الوحيد بخلاف أختي الصغرى، ومن طفولتي وكل رغباتي تُعد أوامر مقدسة، في حقيقة الأمر، كانت أحلامي أوامر.

ثم ضحك وهو يقول:

- كما يقولون في مهنتنا، لم تتح لي الفرصة الحقيقية كي أحلم، وأسعى نحو تحقيق الحلم.

سألته:

- ولماذا إذن دخلت كلية الشرطة؟ إن لم تكن حلمت بها من قبل؟!

أجابني بلا مبالاة:

- كنوع من الوجاهة الاجتماعية، فوضعي العائلي بالإضافة إلى تعلمي منذ الصغر رياضة الفروسية والرماية، جعلاني مؤهلاً لأن أكون ضابطًا كما تراني.

قاطعته في تفلسف:

- وهل تجيد الفروسية حقا؟

أجابني وقد تألقت عيناه بلمعان الحنين:

- بكل تأكيد، إنني فارس بارع.

قاطعته:

- وماذا عن الرماية؟!

صاح في مرح:

- أوه، إنني أصل إلى مرتبة المحترفين، قناص محترف.

صمتت قليلاً، وانا أتابع اللافتات على طريق مصر الفيوم، ثم عدت إلى الحديث بقدر أكبر من الجدية قائلاً:

- يبدو أنك فارس قد ضل الطريق، ولكن الفروسية ليست أن تجيد ركوب الخيول، الفروسية مجموعة من الخصال؛ القدرة على التحمل، وعلى التغيير، وتحديد الأهداف والوصول إليها،

والتغلب على الصعاب مهما كانت، إنني أرى أمامي حقًا طفلاً مدللاً، أنت فارس بحاجة إلى حواجز لكي تعبرها بحصانك، ولكن الطريق أمامك مفتوح كهذه الصحراء، طريقك بلا حواجز؛ ولهذا أنت تشعر بالملل، ومع هذا تريد أن يشفق عليك الآخرون، أليس هذا أمر غريب؟!

حاول أن يقاطعني مبررًا، إلاّ إنني لم أمنحه الفرصة مسترسلاً :

- وقد تكون راميًا بارعًا كما تقول، ولكن قدرة المرء على التصويب، لا تعني أنه بارع أيضا في اختيار الأهداف المناسبة، إنني أشعر في حديثك بمن يحمل خزانة من الطلقات، يفرغها في الهواء كل يوم، دون أن يساعد مظلومًا، ودون أن يردع ظالمًا، هذه هي وظيفة رجل الأمن الحقيقي، أما أنت فما زلت في مرحلة الهواة، أنت ذلك الجوكي، الذي يغار من الحصان الذي يمتطيه! رغم أنهما مختلفان تمامًا.

قاطعني في غضب، فأشعرني بالانتصار بإنني نجحت في استفزازه قائلاً:

- عن أية حواجز تتحدث؟ أقول لك أنني أملك كل ما أريده، وهذا ما يشعرني بفقدان القيمة، إنني بلا دور حقيقي في الحياة.



obeikan.com

قاطعته:

- إن جملتك الأخيرة ليست صحيحة تمامًا، فقد فهمت أن لك محبوبة في هذه القرية! وهذا أمر غريب، فالفارق بينكما من المؤكد كبير، والأغرب أنها أيضًا لا تشعر بك.

ثم قهقهت قائلاً:

- اللعنة، إنك في حالة تثير الشفقة فعلاً.

ازداد الشاب غضبًا من محاولتي الأخيرة، وصار يقفز على كرسيه قائلاً:

- أنت لا تفهم حقيقة الأمر، عندما ترى سوف تعرف، ورغم أن الحب لا يعترف بالفوارق، إلا أنها ليست ريفية ساذجة، بل إنها من أصول ثرية، ومتعلمة في أرقى الجامعات، ورغم هذا، لديها حس إنساني، وإحساس بالمسؤولية؛ دفعها لكي تقيم في هذه القرية، تعمل كمدرسة في مدرستها البائسة، وتشارك الفلاحين همومهم، وتهتم بأطفالهم دون مقابل يُذكر، فقط لأنها إنسانة تملك مصيرها وقرارها، هذا هو سر إعجابي بها.

قاطعته بعدما شعرت أننا على مشارف مسرح الجريمة الملعون قائلاً:

- حسنا، دعك من الحديث في هذا الأمر الآن، ولنعد إلى العمل، هل لك أن تحدد لي مكان مسرح الجريمة؟ وهل هو مكان ثابت في كل مرة؟ أم أنه أكثر من موقع؟

تلفّت الشاب من حوله يمينًا ويسارًا، وكان الأمر مثيرًا للضحك، فنحن على الطريق الأسفلتي، والصحراء عن اليمين واليسار، حتى صاح:

- من هنا، فلنتجه ناحية اليمين داخل الصحراء.

قاطعته:

- هل أنت متأكد؟

أجابني بحماس:

- نعم، نعم فقد أتيت هنا عشرات المرات.

توغلت السيارة داخل الصحراء، وثارت الأتربة من حولها، حيث قطعنا ما يقرب من عشرة كيلومترات جهة اليمين.

حتي صاح مجدّدًا:

- هنا بالضبط.

obeikan.com

أعدت عليه سؤالي مجدّدًا:

- هل أنت متأكد.

أجابني مسرعًا:

- تمام التأكد.

●●●

obeikan.com

# نقطة المنتصف

ترجلت من سيارتي بعدما توقفت في النقطة ذاتها التي حددها رفيقي الشاب، ومضيت بضعة خطوات بعيدًا عنها، كانت الرمال ناعمة تحت قدميّ، يتخللها عديد من الحصاة الجافة، التي كانت تُصدر صوتًا متحشرجًا تحت وقع خطواتي، كان صوتها خشنًا، ومتألما، وكأنني أطأ بقدميّ وطن للعفاريت، أو الأرواح الخفيّة.

وقفت بعد خطوات قليلة، وظللت أدور من حولي، متأملاً هذا الفراغ الأصفر اللانهائي من حولي.

كانت الرياح نشطة فيما حولي في تلك اللحظات، وكأنها شبح آخر يحاول أن يدفعني بعيدًا عن هذا المسرح الغامض والمجهول.

أشعلت لفافة بعد معاناة؛ كانت الشعلة تنطفأ بفعل الرياح القوية، ثم بدأت أحدد ملامح تلك النقطة.

إن التضاريس هنا صعبة ومتعبة، مسرح يُعد الأسوء لأي محقق أو باحث؛ فجهة الغرب في الاتجاه الآخر من الشمس المشرقة أمامي، التي ألقت بظلال من الذهب على تلك الرمال المتشنّجة بفعل موجة الريح من حولي، كان يرقد الطريق البعيد (طريق مصر الفيوم).



obeikan.com

إنـه يبعـد كمـا علمـت مـن توغلنـا في قلـب الصّحـراء حوالـي ٣٠ كم، وبامتـداد هـذا الطريـق، الـذي يشـبه الأفعـى المخيفـة القاتلـة والغـادرة، الملامـح ذاتهـا؛ بسـاط ممتـد مـن الرمـال، يتخللهـا بعـض مـن المناطـق المسـتصلحة، مـن الشـمال تقـع مدينـة السـادس مـن أكتوبـر، ومـن الجنـوب يمتـد الطريـق حتـى أوائـل محافظـة الفيـوم، أمـا جهـة الشـرق ناحيـة الشـمس التـي تبـرز مـن أمامـي مائلـة نحـو كبـد السـماء في مثـل هـذا الوقـت، كانـت هنالـك علـى البعـد بعـض التضاريـس العاليـة؛ فمسـتوى الأرض كان يعلـو كلمـا توغلـت جهـة الشـرق، مندفعًـا إلـى الأمـام، أخـذت أطلـق موجـات الدُّخـان الحبيسـة في صـدري، وأنـا أردد في نفسـي: تـرى مـاذا يرقـد خلـف هـذا العلـو الغامـض؟ ومـاذا تحجـب عنّـا آشـعة الشـمس القويـة؟ فكـم مـن الأسـرار تتخفـى خلـف قناديـل النـور السـاطع؟ وكـم مـن الوحـوش القاتلـة تعيـش في قلـب ينابيـع الحيـاة؟

ناديـت علـى رفيقـي، والـذي ظـل جالسًـا في العربـة في صمـت، وربمـا في ضيـق مـن نقاشـنا السـابق:

- يا صلاح، صلاح!

انتبـه إلـى ندائـي، فترجّـل مـن العربـة في تثاقـل، ومضـى ناحيتـي بالكسـل ذاتـه، نظـرت إليـه متعجبًـا:

– لماذا لم تأتِ معي إلى هنا منذ البداية؟! آلا يثير شغفك أن تطالع مسرحًا للجريمة مجدّدًا؟ ألست أنت ما يدّعي زورًا أنه لا يملك قدرًا كافيًا من الحواجز في حياته؟!

نظر إليّ في ضيق، وهو عاقد كلتا ذارعيه ناحية صدره، وكأنه يحتمي بهما من شدة الرياح التي باتت ترفرف على ملابسه المهتزة، ثم بادرني قائلاً في برود:

– نعم، إنني أشكو من قلة الحواجز في حياتي، ولكني لا أشكو من قلة الهموم فيها.

ثم ضحك في تهكم:

– فلديّ أطنان منها، تكفي سكان هذه المنطقة النائية، وما يجاورها.

نظرت إليه في تمعن وصمت لعدة دقائق، أنفث دخان لفافتي في هدوء، حتى بانت على وجهه أمارات التعجب والدهشة، كان في عيونه فضول، إذا ما كان قد أصابني بالضيق كما فعلت به، لكني استرسلت قائلاً:

– إن هذا المسرح مثالي لذئب طليق، يدور في الأجواء، أليس كذلك؟



obeikan.com

ازداد تعجبه من ذلك التحول المفاجئ في الحديث؛ فعاد إلى طبيعته الهادئة قائلاً:

- هذا أمر طبيعي، فالذئاب تسرح في الصحراء.

قاطعته:

- حسنًا.

ثم عقدت ذراعي خلف ظهري بعدما تخلصت من لفافتي قائلاً:

- لكن، هل تظن أنه ذئب مفرد؟ أم أنه قطيع من الذئاب؟ وهل هو ذئب حقًا؟ أم حيوان آخر من الفصيلة ذاتها؟

ضحك صلاح قائلاً:

- وما الفارق أن يكون ذئب وحيد؟ أم قطيع من الذئاب؟!

ثم هز كتفيه في براءة:

- وربما لا يكون ذئبًا على الإطلاق!

وفي ابتسامة ساذجة:

- إن الأهالي هنا، يطلقون مسمى السِّلْعَوة على كائن يشبه الذئب، ولست أدري ما فصيلة هذا الكائن تحديدًا.



obeikan.com

مضيت خطوات أخرى جهة الشرق، باتجاه التضاريس البعيدة صائحا:

- ماذا يوجد خلف هذه التضاريس؟

أجابني في صوت مرتفع:

- إن القرية تقع هناك على بعد أربعين كيلومترا.

تنهدت وأنا أهز رأسي صائحا:

- إذن، هذا الذئب يقع في نقطة المنتصف؛ مابين الطريق العام والقرية.

واستطردت وأنا ألف حول نفسي:

- وربما يقع في نقطة المنتصف أيضًا؛ بين مدينة السادس من أكتوبر، ومشارف محافظة الفيوم.

قاطعني في دهشة قائلاً:

- حسنًا، وهل هذا يعني شيئًا ما؟!

أجبته وأنا أعض على شفتي في تحفز:

- يعني كثيرًا يا صديقي.



obeikan.com

سألني في فضول:

- وماهو ذلك المعنى الخفي في ظنك؟

أجبته في حماس وأنا أتجه ناحيته مُربِّتًا على كتفه:

- يعني أن أمامنا عمل شائق ومُضني.

ثم تجاوزته بإتجاه العربة قائلاً:

- هيا بنا، فعلينا أن نكون في القرية قبل الظهيرة.

صاح مهرولاً من خلفي:

- حسنا،انتظر.

كانت المسافة بالسيارة على سرعة عالية نسبيًا، بين مسرح الجريمة وهذه القرية، ما يقارب النصف ساعة.

تلك الدقائق التي قضيتها في تحفز وصمت مبالغ فيه، حتى إن رفيقي ركن إلى الصمت ذاته؛ بعدما أرخى جسده على مقعد السيارة في رتابة، الذي كان يقطعه بين الحين والآخر في الإشارة إلى معالم الطريق، فقد اختار أن نسلك طريقًا مُختصَرًا عبر الصحراء، باتجاه هذه القرية، مما شعرت معه أنه يعرف معالم الطريق جيدًا، وكان هذا سؤال جديد، ظل يدور في مخيلتي: كيف

لضابط شـاب، ثـري، ومرفّـه، وعمـر خدمتـه في هـذا المكان قليـلاً، أن يعـرف معالـم الطريـق في وسـط تيـه هـذه الصحـراء بـكل هـذه البراعـة؟!

أليس هـذا أمـر غريـب، والأغـرب مـن ذلـك المسـلك العدوانـي الـذي تبـدى في سـلوكه معي في خـلال هـذه الجولـة القصيـرة! هـل آلمه حقًا طبيعـة حديثي المستفز؟ أم إننـي ضغطـت على خيوط خفيـة في شـخصيته التـي يبـدو عليهـا الوداعـة؟!

أجّلت تسـاؤلاتي بعدمـا أخبرنـي صـلاح بأننـا قـد أصبحنـا علـى مشـارف القريـة المنشـودة، وهـذا مـا بـدا في تلـك البيـوت القديمـة، المبنيـة مـن الطـوب اللـبن، التـي كانـت علـى مرمـى البصـر القريـب منّـا، وماهـي إلاّ دقائـق قليلـة، حتـى تغيـرت اللوحـة تمامًـا؛ فمـن تيـه الصحـراء، إلـى معالـم الريـف البائـس. النـاس هنـا رُسِـمَت علـى تجاعيـد وجوههـم ملامـح البـؤس والفقـر، ومعالـم الهـم والانشـغال.

إن مـن الأمـور العجيبـة التـي كنـت ألحظهـا دائمًـا: أن أبنـاء الريـف يتمتعـون بقـدرة كبيـرة علـى الاحتمـال، ولكنهـم يميلـون بشـكل فطـري نحـو الهـدوء، وأحيانًـا الكآبـة.

إن النكات تنطلـق دائمًـا مـن المـدن، وكأنمـا السـخرية هـي بنـت الزِّحـام، كمـا أن الجريمـة هـي بنـت البشـر في كل مـكان. تذمـرت

obeikan.com

السيارة من تلك الطرق الترابية المليئة بالروث، وتذمرت أنا أيضًا من تلك المفاجآت البشرية التي تندفع أمامك بكل تهور؛ هؤلاء الصبية ذوي الملابس المتسخة، والفتيات الصغيرات ذوات الشعر المختلط بالأتربة.

إن الطفولة هنا مُعذَبة للغاية، ولا عجب أن يخرج ذئب من وسط المجهول، لينهي عذابات هؤلاء الصغار، ناهيك بالطبع عن الدواب السارحة بكل ارتياح في الطرقات في رحلة النهار والليل.

تجاوزنا هذا كله، حتى نبّهني صديقي أن دار العمدة هناك على بعد أمتار قليلة، ففضلت أن أهمل سيارتي في أي ركن قريب، وأن نتجه إلى داره سيرًا على الأقدام؛ منعًا لإثارة الفضول غير المبرر.

فالريف وإن كان لا يُتقن فن السخرية، فمن دون شك، هو الأستاذ في مضمار الشائعات.

●●●

# الذئب يأتي من بعيد

اقتربنـا مـن دار العمـدة الـذي لـم يبـدو عليـه أي دلالـة مـن دلالات الفخامـة، كمـا اعتدنـا في أصحـاب السـلطة، إنـه منـزل ريفـي عـادي، لا يختلف عن أقرانه كثيـرًا سـوى أنـه مشيد بالطوب الأحمر هـذه المـرة، وفي واجهتـه بعـد عـدة درجـات إلـى أعلـى، تبـدو تلـك المضيفـة الواسـعة التـي تحتـل واجهـة المنـزل في اتسـاع، وتلك المضيفة التـي يمكـن أن يُطلَـق عنهـا مجـازًا: مجلـس الحكـم، التـي يجلـس فيهـا المتنازعـون في حضـرة العمـدة، وكبـار أهـل البلـدة في جلسـات التسـويات والصلـح، أمـا باقـي أرجـاء المنـزل، تبدَّى التخطيط الريفي المعتمـد؛ باحـة كبيـرة، وغـرف ضيقـة عـن اليمـين واليسـار، وفي نهايـة المنـزل عـادة مـا يوجد ذلك المخبـز البدائـي الـذي يقتـات على الحطـب، وإلـى جـواره سـلم متهالـك يؤدي إلـى أعلـى، هكـذا تخيلت باقـي أرجـاء المـكان.

بعدمـا تجاوزنـا الدرجـات القليلـة، وأصبحنـا علـى مشـارف تلـك المضيفـة، أخذنـا نصفـق بأيدينـا، في حـين تولـى صـلاح النـداء قائـلاً:

- يا أهل الدّار، يا حضرة العمدة.

ومـا هـي إلاّ لحظـات قليلـة حتـى جاءنـا صـوت مـن الباحـة الفسـيحة قائـلاً:

- أيوه، مين؟

كان صوت غليظًا، يليق بصاحب سلطة حقًا، هكذا فهمت من إيماءة رفيقي، بأن ذاك الرد قادم من ثغر جناب العمدة مباشرة (كما يحلو للفلاحين أن يطلقوا على صاحب هذا المقام) .

برز من خلف الباب الخشبي الضيق، الذي أوصدت إحدى ضفافه، وفتحت الأخرى، رجل قد تعدى الخمسين من عمره، يرتدي جلبابًا بني اللون، تعلوه عباءة صوفية سوداء.

كان يضبط من وضعية تلك الطاقية الصوفية أيضًا على رأسه الضخمة، تلك الطاقية التي استطالت بدون مبرر، في صورة هزلية إلى حد بعيد.

كان رجل ضخم الجثّة، وبدين إلى حد ملفت، ذو كرش مهيب توارى خلف تلال الملابس الثقيلة والفضفاضة، ومتوسط الطول، وذو لون داكن، وعيون سوداء ضيقة للغاية، مستديرة كحبات المسبحة اللامعة، وأنف ضئيل، وفم على خلاف ما سبق؛ متسع في تناسق غريب مع معالم رأسه المستدير، وما أن أبصر رفيقي، حتى تهلل سرورًا؛ أبرز ملامح ثغره الخالي من نصف أسنانه قائلاً في صوت معجون بخميرة التصنع:

- يا ميت مرحب بالحكومة، يا أهلا بالناس الكرام، تفضلوا، تفضلوا، يا ألف مرحب، دا إحنا في عيد النهاردة!

ثم أشار إلينا بالتقدم يمينًا؛ في نهاية حدود المضيفة، التي رقدت في ركنها البعيد، العديد من الآرائك الخشبية، ذات المراتب القطنية المريحة.

تقدمت ورفيقي في صمت بعدما سلمنا على حضرة العمدة، الذي أمسك بأناملنا في سلام حار، وكأنه يتحصل على البركة من أحد مبعوثي السماء إلى الأرض، حتى استقر بنا المقام أخيرا على تلك الآرائك، في تناغم مع صياح العمدة:

- الشاي يا ولاد، يا ألف مرحب، يا أهلا، يا أهلا.

امتدت لحظة التحيات المصطنعة حتى قدوم الشاي، كان الحديث دائر بين صلاح والعمدة، في حين فضلت أن أجلس في صمت، بعدما وضعت ساقًا على ساق، وأشعلت لفافة، ومددت بصري أطالع الطبيعة النّقية برغم ما فيها، حتى ابتدرني العمدة بعد أن ملّ من النظر المسترق نحوي، وكأنه يحاول أن يكشف سر ذلك الغريب قائلاً:

- يا مرحب يا سعادة البيه، إحنا زارنا النبي، ولعل تكون بلدنا عجبتك زي ما زادها النور بتشريفكم النهاردة.

باعدت بين اشتباك ساقي، ثم اعتدلت جهة الأمام، في ملامح جادة؛ في محاولة للدخول إلى صلب الموضوع مباشرة قائلاً:

- يا أهلا بك يا حضرة العمدة، أحب أعرفك بنفسي، أنا المقدم/ أنور النواوي، من مصلحة الأمن العام.

لاحظته وهو يزدرد لعابه، ثم قلت مسترسلاً:

- وفي الحقيقة يا عمدة، لم تعجبني بلدتكم على الإطلاق، فطالما كان هنالك مجرم طليق، في حين نجلس نحن نحتسي الشاي، فهذا أمر لا يدعو إلى الإعجاب أبدًا؛ ولهذا فإنني هنا، والسيد/ صلاح أيضًا، وأظنك تعرفه.

تغيرت نبرة صوت العمدة نحو الاهتمام:

- طبعًا، طبعًا صلاح بيه نار على علم.

ثم تصنع الحزن قائلاً:

- والحقيقة يا بيه، إنت معاك حق في كل كلامك، الناس هنا كلوا وشنا، من ساعة ما الديب المفتري دا ظهر عندنا في الناحية، والبلد عايشه في رعب يا معالي الباشا، والبؤس زاد من مرار الناس.

ثم تنهد في حرارة وتابع:

- الناس مش عارفه هتلاقيها منين ولا منين؛ من الفقر، ولا الموت اللي بيخطف شبابنا وعيالنا مع كل طلعت نهار، ولا من...

قاطعه صلاح في ابتسامة مصطنعة قائلاً:

- الحق يُقال يا أنور بيه، جناب العمدة الحاج/ ضيف أبو أزد أحمد، رجل يعرف عمله جيدًا، وعمدة الناحية من زمن طويل، ولم يكن هنالك أية شكاوي بخصوص هذا الزمام من قبل ظهور هذه الجرائم المحيرة.

التقطت خيط الحديث مجدّدًا قائلاً:

- يا حضرة العمدة، أنا لا أشكك في عملك على الإطلاق، ومن المؤكد أنني بحاجة إلى تعاونك في حل هذه القضية حتى ينتهي هذا الحداد والفزع من هذه القرية، وحتى ترضى القيادات في الوزارة.

وتابعت في تحاذق:

- وبما أنك كما قال صديقي، رجل خبير في منصب العمودية، فأرجو أن تحدثني قليلاً عن طبيعة القرية؛ هل هي زراعية، أم صحراوية؟ وعن الحرف والصناعات، وعدد السكان تقريبًا .... إلخ.

تنهد العمدة في حرارة مجدّدًا بشكل أبرز ما تبقى من حطام أسنانه التي ضرب في أنحائها السواد من أثر الدخان والمرض قائلاً:

– يا سعادة الباشا، قريتنا دي المفروض كان يسموها المسخوطة، لأنها من يوم ما أُنشئت لا معروف لها لا أب من أم، حظها مايل، وحظ أهلها مال معاها، إحنا يا جناب الباشا، عايشين في مرار من السبعينيات؛ لا إحنا تبع الجيزة وأهلها، ولا إحنا تبع الفيوم؛ لإن المسافة ما بينا ياما، مع إننا برضه تبعها! بلدنا عايشة في مرار، مرار الطريق، والشتات اللي عايشين فيه، لا منا قبلي، ولا بحري، ورغم إن الأرض حدانا تصلح للزراعة، إلا إن الزمام بتاعنا ضيق، والباقي كله رمله صفرا زي ما حضرتك شايف، وكل ما نقول ربنا هايفتحها في وشنا، ونتوسع شوية،يجي مندوب الآثار، وبتوع الآثار، ويقولولنا ممنوع».

وتابع في حركات متشنجة ومصطنعة:

– ممنوع ليه ياحضرات؟! يقولك حتمًا ناخد الموافقات من هيئة الآثار، وغيره، وبلدنا من قديم الأزل على هذا الحال؛ زرع قليل، وصحرا كتير، فلاحين في مساكنهم، ومن حواليهم الغجر والديابة من كل اتجاه.

تصنعت التأثر بذلك الخطاب العاطفي الذي ألقاه العمدة على مسامعنا كأروع الممثلين المسرحيين في العصور الرومانية، إلاّ إنني قاطعته قائلاً:

- إنني أتفهم دوافعك، ولكن لا يمكن أن نلقي اللوم على هيئة الآثار في بؤس هذه القرية، فالعيب من المؤكد، هو عيب في الإدارة، وسوء استغلال الموارد والتنمية، أما الآثار فهي إرث حضاري، العالم كله يفخر به، وقيمة لا يعلو عليها قيمة أخرى.

إلاّ أنه أجابني في حسرة قائلاً:

- وما الفائدة في قيمة مدفونة تحت الرمال، وأصحابها معدومي القيمة على ظهر أرضها؟!

ثم تساءل:

- وكيف يُحرم المرء من أرض يملكها؟ أليس في هذا نوع من العبث؟

قاطعته ضاحكًا:

- من الواضح يا جناب العمدة، أنك تملك حسًا خطابيًا عالٍ بكلا اللهجتين؛ العامية، والفصحى. ضحك كلاهما، ثم تابعت:

obeikan.com

- ولكن علينا أن نؤجل حديثنا عن قيمة الإنسان الحي، حتى نضمن له تلك الحياة أولاً، وبخلاف الأزمات المزمنة التي أستشعرها في حديثك، إلاَّ إن مسألة ذلك الذئب الطليق هي بمثابة خطر داهم ومباشر على حياة الصغار في هذه القرية؛ ولهذا أنا أريد تعاونك الكامل في هذه القضية، فهذا المسلك الإجرامي لا يمكن السكوت عنه، ولا بد من وضع حد لذاك الخطر.

قاطعني العمدة في انفعال، وهو يصفق بكفه على عنقه؛ مما أحدث دويًا مفاجئًا، وهو يصيح: - أنا رقبتي فدا البلد، وأهل البلد.

أكملت ساخرًا:

- وهذا هو ظني بك يا جناب العمدة، كما يعجبني حماسك الواضح، وتلك الفدائية التي أستشعرها في نبض عروقك.

أشعلت لفافة وأنا أنظر في ساعتي التي تجاوزت الثانية ظهرًا ثم قلت:

- حسنًا يا عمدة، إنني سوف أترك معك السيد/ صلاح؛ ليشرف معك على تنفيذ الإجراءات المتفق عليها.

صاح الاثنان في دهشة وفضول في قول واحد:

- وماهي تلك الإجراءات المطلوبة؟!

ضحكت بشدة من رد فعلهما، ثم أكملت وأنا أنظر إليهما في جدية قائلاً:

- أولاً: أريد أن أرى كافة الغفراء العاملين في هذه القرية.

وتابعت في حِدّة:

- وتحديدًا أقدم غفير في هذه الناحية.

ثانيا: أريد بيانًا بكل أسماء الغرباء الذين يفدون على هذه القرية بشكل دوري أو متقطع؛ وموعد مجيأهم، وما هو سر ترددهم على هذه القرية؟ بالإضافة إلى بيان بالغرباء الذين يقيمون في القرية، وماهي الأسباب التي دعتهم لذلك؟ مهما كان نوع هذه الإقامة؛ فترات طويلة، أم قصيرة، أم متقطعة، وهذا البيان المفصّل أريده عن كامل الأربع سنوات المنصرمة. عضّ العمدة على شفتيه في تدبر، قائلاً في حيرة:

- لكن يا سعادة البيه هذا الموضوع صعب إلى حد كبير، وسوف يأخذ وقتًا ومجهودًا مضاعفًا.

قاطعته وأنا أشير إلى عنقه المغمور في طيات ملابسه الصوفية قائلاً:

- وماذا عن رقبتك التي كانت فداء للبلد منذ لحظات؟!

obeikan.com

وتابعت في غضب مصطنع:

- لا يا عمدة، إنني أريد عملاً على أعلى مستوى، وإذا ما كنت غير قادر على ذلك، أخبرني، وسوف أتكفل أنا بذلك.

أخذ العمدة يستمع إليّ في خجل وهو يحك بأنامله تلك التفاحة الضامرة من أثر الدهون أسفل ذقنه ثم بادرني:

- أنا تحت أمرك يا سعادة البيه، ما تشغلش بالك.

ثم أراد أن يهرب من التوبيخ بطريقة لبقة؛ فهبّ واقفًا وهو يصيح:

- فين الغدا يا بنات؟

لكني قاطعته واقفًا:

- لا داعي لذلك؛ فأنا مضطر أن أكون في القاهرة قبل حلول المساء لقضاء بعض الأمور المهمة.

استوقفني صلاح سائلاً:

- وماذا عني؟

اقتربت منه هامسًا وأنا أقول:

- أظن أنك ناضجًا بما فيه الكفاية لكي تتكفل بما طلبته في غيابي.



obeikan.com

وتابعت ضاحكًا في همس:

- كما إنها فرصة ذهبية، لكي تقتنص الحبيبة المنشودة، على أنقاض مهمة رسمية شاقة.

تباعدت عنه في نشاط صائحا:

- حسنًا ياعمدة، السيد/ صلاح سيبقى معك، وموعدنا القادم بعد أسبوع من الآن.

واستطردت في تحذير:

- أرجو أن تنجزا هذه المهمة في الموعد المحدد.

ثم سلمت عليهما، وتباعدت ناحية الدرج المؤدي إلى الطريق، إلاّ أن صلاح استوقفني في نداء مفاجئ، ثم اقترب مني في فضول قائلاً:

- هل لي أن أعرف لماذا تبحث عن الغرباء تحديدًا؟

ابتسمت في هدوء، ثم ربت على كتفه قائلاً:

- لأن الذئب دائمًا ما يأتي من بعيد يا صديقي العزيز.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# ما قبل البلوغ

رجعت إلى محرابي بعد تلك الزيارة الخاطفة إلى مسرح الجريمة، وموطن الذئاب، وأنا محمل بمئات الأسئلة، والعديد من علامات الاستفهام.

ورغم إنني كنت ذاهب إلى هناك بنية البقاء أكثر من يومين أو يزيد، إلاّ أن فكرة البحث عن الإجابات كانت تشغلني؛ وذلك ما جعلني أقرر في أثناء جلستي مع العمدة، أن أعود إلى تلك المكتبة الضخمة.

إن الإنسان بدون معرفة، يتعامل مع المجهول، العالم من حوله يتحول إلى كثير من المعادلات المستعصية، والرموز المبهمة، والشفرات المجهلة، ولا أنكر أنني وجدت في طريق عودتي، قدرًا لا بأس به من تلك المعادلات، والشفرات، والرموز.

مضى أربعة ايام أو أكثر، وأنا قابع في مسكني؛ أقرأ، وأبحث، وأحلل، كانت المحاولة شائقة ومضنية.

إن الجرائم الغامضة، تشبه إلى حد بعيد بَكَرات الخيط الضخمة، التي تحتار فيها، وفي ضخامتها؛ تظل تدور من حولها في شقاء، تبحث عن بداياتها المجهولة، ولكن بعد قدر من المعاناة،

وربما حسن الحظ أحيانًا، تتمكن من الإمساك بطرف الخيط، وحينها تصبح الأمور في غاية السلاسة، تظل تسحب في بدايات الخيط، بينما ينتاب ذلك الجسم الضخم حالة من الدوران المفاجئ، وكلما كانت السرعة أكبر، استطعت في النهاية أن تجد الجاني مختبئا خلف ذلك الكم الهائل من الخيوط، يجلس عاريًا كدودة الحرير، ينسج أوهامًا ناعمة، ربما تنجيه من المصير المعتاد، قابعًا خلف الأسوار الحديدية.

لم ينغص عليّ في تلك الأيام القليلة التي قضيتها في البحث عن ذلك الطرف المفقود، سوى بعض الأعمال الروتينية الصباحية، التي كان من الواجب أدائها؛ فقد كان من المطلوب أن أنهي أوراق انتدابي في هذه القضية من مقر مديرية أمن الجيزة، بالاضافة إلى تسديد بعض الأعمال المكتبية بداخل المصلحة، والتي انتزعتني تلك القضية بملفها الضخم من إكمالها.

أما ما دون فترة الصباح، فقد كنت أحرص على التواصل يوميًا مع رفيقي الشاب، ذلك الضابط المتحمس، أو ربما المُحبَط؛ لأطمئن على سير العمل لديهم، ومدى الإنجاز في حصر الغرباء عن أهل هذه القرية.

أما في المساء، فقد كنت أجلس في مكتبي لساعات طوال، أغازل فيها مكتبتي، بما فيها من كتب شيقة، و متعبة أيضًا، كانت أقداح الشاي تتوالى على ثغري، بقدر تدفق الأفكار على رأسي؛ وأنا أفض بكارة كتاب لم أطرق صفحاته من قبل، أو ربما طالعته منذ وقت طوال، وحان الوقت لقراءته بمنظور جديد، وبعين جديدة؛ عين الباحث، أو برغبة اللاهث نحو المعرفة.

ورغم إنني في أول يومين فقط، اطّلعت على ما يقارب العشريت كتاب، إلاّ إنني لم أجد ضالتي في كلماتهم؛ لم أجد تلك البوابة السحرية التي تطلق سراح تلك الأسئلة الحبيسة في جيوب العقل، وخلف جدران الذهن، كنت أشعر بها كالكلاب التي تنبح في الظلام، وكأنها تنادي أصحاب الدار لكي ينتبهوا لذلك اللص الذي تعدى حدود المناطق المحظورة، وتلك القضية تحديدًا، كانت بحاجة إلى جيش متكامل من الكلاب؛ لكي يثير الذعر في نفس ذلك الذئب الطليق؛ لكي يحاصروه في ركن ضيق، حتى يسقط في النهاية ضحية الخوف، أو الإنهاك .

في الليلة الرابعة، كنت جالس في مكتبي وقد نال مني التعب تمامًا، كانت عيوني محتقنة من كثرة القراءة والمطالعة؛ فكتب الجريمة، والفلسفة، وعلوم الإجرام، لم تستطع أن تمنحني مفتاح الشفرة الملائم؛ لفك تلك الطلاسم المبهمة، وتلك التعاويذ



obeikan.com

الصاخبة، التي تنطلق مع كل كلمة من كلمات تلك القضية، وفي كل حدث من أحداثها.

وكما تعودت دائمًا في مسيرتي المهنية، أن أدقق في كل التفاصيل، وألاّ أهون من أمر أية ملاحظة مهما كانت غريبة، أو تافهة، أو معتادة؛ فلكل شيء سبب، ولكل حدث أو رد فعل سبب ما، قد نعجز في فترات أن نفهمه؛ بسبب قلة الوسائل، أو الحاجة إلى المعرفة، ولكن المعنى والسبب دائمًا له وجود.

قمت في تلك اللحظات من مقعدي خلف المكتب، وأنا أفرك في عينيّ من أثر ذلك الزيغ المفاجئ من شدة الإرهاق، مضيت خطوات بعيدة نحو أريكة كانت ترقد في نهاية الحجرة، وإلى جوارها مذياعي القديم الذي ورثته عن والدي.

ظللت أعبث بتلك الدائرة الخشبية في واجهة المذياع، بكل هدوء وحرص، وكأنني أبحث عن روح هائمة في الفراغ، أو أحاول أن أتواصل مع كائنات أكثر رقيا من بني البشر في عوالم أخرى؛ لعلها تساعدني في فك طلاسم هذا اللغز.

حتى في النهاية حسمت ذلك الضجيج المنبعث من فم المذياع العتيق، على نغمات كلاسيكية مريحة، ثم وضعت نظارتي على الطاولة الصغيرة إلى جوار الأريكة، ثم استرخيت عليها في تأوه،



obeikan.com

أغمضت عيناي، وأخذت أعيد شريط الأحداث في رأسي؛ أوراق الملف، وعواء الذئب، والضابط الصغير، وحديث العمدة.

كانت تلك اللحظات فرصة لالتقاط الأنفاس، وشحن بطاريات العقل المشتت من جديد، وسريعًا ما آتت تلك الطريقة ثمارها؛ فخلف ظلام العيون المغلقة، كانت تلمع عيون الذئب الحمراء في وسط الظلام، كان عواؤه عاليًا في أذنيّ، بصورة تطغى على نغمات الموسيقى العذبة.

أخذتْ صور الأطفال الناطقة، في كلمات الأوراق تتجسد في مخيلتي، إنهم كلهم صغار؛ ما بين عمر العاشرة، والرابع عشر، أو بمعنى أصح قبل عمر الرابع عشر.

ولا بد أنهم ضعاف البنية؛ فالذئب لا يهاجم سوى الضعفاء، ومن المؤكد أن في ملامحهم طفولة ناطقة، ولكن لماذا الأطفال تحديدًا؟!

راحت لعنات العمدة تتردد في عقلي وهو يصيح في حسرة:

- مندوب الآثار، وبتوع الآثار.

إن الآثار أيضًا رمزًا لا يمكن إهماله أو تجاوزه، فما الرابط ما بين ذئب، وطفل، وكنز مدفون في الرمال؟!

اللعنة، إنها ذات المعادلات الخارقة، التي يقف المرء أمام رموزها في حيرة، عادت الذئاب تعوي في مخيلتي من جديد، هل الأمر مجرد طقس سحري لفض أقفال المقابر الذهبية؟ ولدرء خطر الحراس السفلية؟ هل هؤلاء الأطفال تُقَدّم كالقرابين من أجل هذا الأمر؟ من أجل الثراء القادم من أعماق التاريخ؟!

لست أدري، أخذتُ أنصت إلى الموسيقى، وكأنني أبحث عن هدنة من ذلك الجحيم، قليل من النغمات المنعشة، ثم عدت إلى المعادلة من جديد.

شعرت أنها معادلة صعبة للغاية، فآثرت أن أحذف أحد المجاهيل منها أولاً؛ حتى تكون سهلة في الحل، حذفت الكنز مؤقتا، فصارت المعادلة معنية برابط بين: الذئب، والطفل.

ترى ما الذي يجمع بينهما؟! فتحت عيناي، واعتدلت في تحفز، ثم أشعلت لفافة التقطها من تلك العلبة الراقدة في جيبي، وصببت قليلاً من الشاي في قدح فارغ يرقد أمامي، وأخذت أرتشف الدخان والشاي وأنا أنظر إلى المكتبة من حولي؛ إلى تلك الصفوف المتراصة في انضباط وطاعة؛ فكثيرًا ما كنت أتصور أن الكتاب هو أكثر الجنود طاعة على وجه الأرض.

أخذت أدور بنظراتي، وأنا أردد: ذئب وطفل، ذئب وطفل.

قمت من مكاني، وأنا على ذات الحال من الترديد، وأخذت أمر بأناملي على الكتب، وكأنني ألتمس منها العون والمساعدة، حتى تذكرت ذلك الوصف الأول، إنه ليس طفل فقط، بل طفل في مرحلة ما قبل البلوغ، وهنا تذكرت أن كل الضحايا منزوعة الأعضاء التناسلية، حينها لمع في ذهني رابط قديم؛ قرأت عنه وأنا في مرحلة المراهقة، في باب عادات الشعوب وطقوسهم.

نعم، إنه طقس البلوغ الذي يجمع بين الأطفال والذئاب لدى شعوب...، وضعت ذراعي خلف ظهري وأنا منكس الرأس، في محاولة مضنية لاستعادة ذاكرة الأيام الماضية، ظللت أذرع الغرفة يمينًا ويسارًا، وأنا أردد: لدى شعوب، لدى شعوب.

ثم تهللت فرحًا كطفل أخرق صائحًا:

- نعم، لدى شعب الأباتشي، هرعت إلى المكتبة، وأنا أبحث عن الكتاب، مرددًا في تأمل لعناوين الكتب، قبائل الأباتشي، قبائل الأباتشي...

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# الحُمّى

في تلك الليلة وعلى خلاف العادة، سهرت حتى تباشير الصباح، ويبدو أن الجو كان شديد البرودة من غير أن أنتبه إلى ذلك؛ فقد استغرقتني سهرة طويلة بين تلك الكتب التي التقطها من مكتبتي؛ بحثًا عن ذلك الطقس الغريب، أو العادة المسماة: بطقس البلوغ.

فلدى كل شعب ثقافته، وذئابه، وملائكته، وشياطينه، وهنالك العديد من الشعوب التي تحتفل بتقدم الإنسان في العمر؛ سواء عند لحظة الميلاد، أو على مشارف البلوغ، أو الزفاف، أو الموت؛ فالإنسان هو الإنسان في كل مكان، وفي أية بقعة.

لا تصدق إذا ما ادعى أحد أمامك بأن هنالك شعوب عاقلة، أو متحضرة خالية من الطقوس الغريبة او الشاذة؛ ففي كل بقاع الأرض هنالك من يحتفل، أو يقيم سرادقات العزاء، هناك من يحتفل برحلة صيد، وآخر بجريمة قتل، وهناك أيضًا من يقيم العزاء على ضوء القناديل، وآخر يشعل نارًا يحيي فيها روحًا تحولت في ظنه إلى رماد.

Obeikan.com

إن الطقوس تحكم عالم البشر؛ مرة في صورة أنخاب تُرفع؛ لتحيي لحظة السكر المفقودة، ومرة في نشوة تَبتل مُبلل بالدموع.

إننا نحن البشر، تحكمنا نزعات النفس، بصورة تفوق العقل، ويحكمنا الجنون بالقَدّر ذاته الذي نتمسك فيه بالمنطق.

أبحرت بين تلك العادات الغريبة؛ احتفالات الميلاد، تذكرت ذلك الطقس الذي يتقنه المصريون قديمًا، تذكرت تلك الأطفال التي كنت أراها تصرخ في طقس السُّبوع، كما يُسمى عندما تتحول تلك الشبكة الحديدية إلى سرير، وعندما يحلق الكبار والصغار من حوله في سعادة، يدقون في الآواني الحديدية، طرقات مزعجة، ويلقون على أذنيه الأوامر بأن يكون طفلاً مطيعًا ممتثلاً لأوامر ذويه!

ولكن مع هذه الذكرى الصاخبة، اكتشفت أننا مرهفي الحس، وضعاف القلب؛ ففي إحدى العادات الهندية، يُلقى الطفل من الطابق السابع أو التاسع، في طقس المراد منه: درء الأرواح الشريرة عن الطفل الصغير.

ومن هذه الطقوس الكثير، أما البلوغ فلا شك أنه لدى الشعوب أمر يستحق الاحتفال، إنها البشارة على أن زمرة الكبار قد اكتسبت عضوًا جديدًا، وهذا أمر يستحق الاحتفال، وربما يستحق الاختبار.

وتلك الاختبارات تتفاوت بحسب اعتقاد تلك الجماعة أو هذا المجتمع؛ فبالنسبة للفتيات يصبح الاختبار في صور كثيرة، تثبت به أنها جديرة بأن تكون زوجة مخلصة، وأمّا وفية.

ربما تضع زهرة في جدائلها، وربما تُجبر على الرهبنة أو خدمة المعبد لوقت معين، أو تلتزم بعد تلك النقطة الفاصلة برداء معين، فلم يعد من اللائق أن تكشف عن عورة الطفلة التي كانت.

أما الشباب فقدرهم دائمًا مختلط بالدماء، فقد يكون الطقس في صورة شجار دامٍ، أو استعراض لمهارات خطرة، وذلك ما يفعله قوم الأباتشي.

قمت في اليوم التالي في وقت متأخر من الظهيرة، متعب للغاية، أشعر بقدر من الوجع الذي يلتهم مفاصلي، ومعالم احتقان في حلقي، وتلك كانت النبوءة بإنني مقبل على نوبة من الإنفلونزا المتكررة، واللعنة على هذا الفيروس، إنه المجرم الوحيد الذي لم أستطع التمكن منه حتى الآن!

اتخذت الاحتياطات المعتادة في مثل هذا الأمر؛ الليمون الساخن، وبعض الأقراص الوقائية، ثم ركنت إلى الراحة في سرير بالطابق العلوي، رقدت على سريري في إعياء، وأخذت أطالع تلك الكتب المبعثرة من حولي، أحيانا بقدر من الملل، وأخرى بقدر

obeikan.com

من التعب؛ فقد كانت نوبة الإعياء تتصاعد بمرور الوقت، مما جعلتني أتصل بالطبيب وأنا أجاهد في الحديث من اثر الحمّى.

أشار على بتناول نوع معين من الدواء، ثم الخلود إلى النوم قدر المستطاع، أغلقت الهاتف وأنا أشعر أن الفيروس يمارس هو الآخر طقس من الطقوس الخالدة؛ يمارس رحلة للصيد في مجرى دمائي، وعلى حواف أوردتي.

حدثت الطبيب الصيدلي، وطلبت منه في توسل أن يُرسل لي ذلك الدواء في أسرع وقت ممكن، ثم عدت إلى مرقدي، واسترخيت في سكون المضطر.

كان جسدي ساكنًا، ولكن عقلي كان مشحونًا بالزحام؛ زحام الأفكار التي أجبرتّها حرارة الجسد على أن تطفو على السطح، وأن تتنازع في سيل متقطع، ومتداخل، ووجدت نفسي أفكر، وربما أهذي قائلاً:

- ترى مَن الذي قلب الآية؟ تلك القبيلة القديمة، التي كانت تعيش على الصيد والحرب، وتمارس السطو والنزاع قديمًا، وتتقن فن القنص والتقصّي، وتعيش على فنون تقفّي الأثر، تلك القبيلة التي كانت في العالم الجديد حينها، والتي اندثرت على أيدي المستعمرين، ولم يبقَ منها سوى بعض من الذكرى، وقليل من الفنون الغريبة، والتجمعات الضئيلة.

إن معنى الأباتشي بالأسبانية: السفلة، فمن الذي استطاع أن يُبيد السفلة؟! وأن يجعل الذئب هو الذي يمارس طقوسه على الفتيان.

ارتسمت في مخيلتي صورة فتيان الأباتشي، وهم يبدؤون احتفالهم بلحظة البلوغ، في سهل منبسط فوق العشب الأخضر المتراقص، يخرجون إلى الفضاء، وقد رسموا على ملامحهم ألوان الحرب، وكللوا رؤوسهم بتيجان من الريش الملون، وارتدوا في نصفهم السفلي، رداء من جلود الماشية.

تخيلت في مقدمتهم، شاب يافع يُمسك بقرن الجاموس، ينفخ فيه معلنًا بداية الحرب، وبداية اللعبة.

إنها رحلة البحث عن الذئب، وطالما كانوا فريقًا واحدًا؛ فالذئب إذن في خطر، أما إن كانوا فرادى، فسوف تكون الرحلة شاقة، ومتعبة، وربما انقلب السحر على الساحر.

انتفضت من مجلسي في رعشة، على صوت أنين الباب، قمت في تثاقل، وتخطيت محيط الحجرة إلى الخارج، هبطت على الدرجات في إعياء، وأحكمت ذلك الثوب الصوفي على جسدي؛ بعدما شعرت ببرودة الجو بالخارج، حتى وصلت إلى الباب الخارجي، التقطت الدواء من ذلك الصبي الصغير، ابتسمت



obeikan.com

لـه بعدمـا أعطيتـه بقشيشًـا ضخمًـا، وكأننـي أحـاول أن أقـول لـه: اشترِ لنفسـك طعامًـا يسـاعدك علـى أن تكون قـوي البـدن؛ فمواجهـة الذئـاب أمـر خطيـر، ثـم تراجعـت إلـى الداخـل، بعدمـا طالعـت في السـماء حمـرة بلـون الدمـاء في سـاعة الغـروب.

رجعت إلـى غرفتـي مجـدّدًا، لكنـي لـم أفلـح في العـودة إلـى مـا كنـت أتخيلـه؛ فالحمّـى اشـتدت بشـكل كبيـر، وذلـك الـدواء الـلاذع أصابنـي بغصـة في الحلـق، وتقلصـات في المعـدة.

استلقيت في هـدوء، وأنـا أفكر في شتات: مـن صاحـب المصلحـة في الخـلاص مـن الفتيـان؟!

إنـه الذئـب بـكل تأكيـد، ولكـن كيـف لـه أن يفعـل ذلـك؟! كيـف أمكنـه أن يسـتدرجهم إلـى العـراء؟! ثـم انقـض عليهـم بأقسـى أنـواع الغـدر الممكـن، كيـف يمكنـه أن يفعـل ذلـك؟!

لا بـد أنـه يأتيهـم في ثـوب الحمـل! أو رداء الناصـح، أو ربمـا هـو واحـد منهـم، ولكـن حـدث لـه شـيء مـا، فتحـول مـن صبـي إلـى مسـتذئب.

ظللت أهذي وأنا أقاوم النعاس مردِّدًا: ربما، ربما.

●●●



obeikan.com

# الأنياب

تصاعد رنين الهاتف إلى جواري، كنت أشعر أنه بعيد للغاية؛ فقد كنت غارق في نوبة من الإعياء والهذيان، كنت أشعر أنني أحلم بذلك الرنين، كان رنين متكررًا، ربما جاوز النصف ساعة؛ مرة، أو مرتان، حتى انتبهت في النهاية إلى أن هذا النداء قادم من عالم الأحياء.

اعتدلت في تثاقل، وسرعان ما اكتشفت أنني نمت طويلاً جدًا، وكأنني لم أنم من قبل في حياتي.

التقطت الساعة من جواري، لقد قاربت على الساعة الثالثة فجرًا، ممدت يدي نحو الهاتف القريب في صعوبة، وأنا أجاهد في تحفيز خلايا عقلي التي نالت منها الحمّى.

وما إن رفعت السماعة إلى أذني، حتى سمعت صوت صلاح، وهو يصيح:

- أين أنت يا سيد أنور؟! إنني أجاهد في الاتصال بك منذ أكثر من نصف الساعة!

أجبته بصوت واهن:

- خيرًا يا صلاح، ماذا وراءك؟

obeikan.com

أخبرني في لهفة ممزوجة بالهلع:

- لقد فعلها مجدّدًا يا سيدي؛ لقد عثرنا على جثة طفل آخر في المكان ذاته تقريبًا.

اعتدلت في صدمة قائلاً في إلحاح:

- متى حدث هذا الأمر؟ وكيف؟ وأين؟ وهل وصل رجال البحث الجنائي والطب الشرعي إلى هناك؟ هل الجثة ما زالت هناك؟ أخبرني!

قاطعني في شجن:

- لقد أتاني الخبر منذ أقل من ساعة، ومن حينها وأنا أجاهد في الوصول إليك، ولا تقلق فالسيد عصام قد توجه إلى هناك، وأظنه الآن في طريقه إلى موقع الجريمة.

قاطعته في توتر وأنا أنظر في ساعتي:

- حسنًا، اسمعني جيدًا إن أمامي ساعة تقريبًا حتى أصل إلى هناك، عليك أن تتوجه إلى هناك فورًا، وأن تحافظ على مسرح الجريمة من العبث، وإياك أن تتركهم يرفعوا الجثة قبل أن أصل إليك.



obeikan.com

ثم تابعت في جدية:

- أقولها مجددًا إياك أن ترفعوا الجثة في غيابي، أريد أن أصل إلى هناك، فأجد المسرح كاملاً بعيدًا عن العبث.

قاطعني في انفعال:

- حسنًا، أعدك بذلك، ولكن بكل أسف، لا أظن أننا سوف نجد مسرحًا ملائمًا للبحث.

قاطعته في حدة:

- لماذا؟!

أجابني قائلاً:

- لانها تمطر منذ ساعتين أو أكثر.

شعرت بخيبة أمل كبيرة قائلاً:

- حسنًا، امضِ إلى هناك الآن، وسوف أصل إليك في أسرع وقت ممكن.

قمت من مكاني وأنا أشعر بضبابية وزيغ في الرؤية، كان الالتهاب في حلقي يكاد يسد مجرى الهواء إلى صدري، بعدما قضى ذلك التهيج في أنفي على كثير من كفاءته.



obeikan.com

أخذت أنظر في ساعتي في توتر، وأنا ألتقط ملابسي من كل صوب وحدب، حتى أكملت ارتداءها في دقائق قليلة، ثم ارتديت ذلك المعطف الثقيل، ولففت من حول عنقي كوفية صوفية سوداء اللون، ثم التقطت حقيبة صغيرة، وضعت فيها مصباح ذو حجم متوسط، وآلة تصوير، ووضعت الدواء بعدما تجرعت منه رشفات جديدة، ودسسته داخل الحقيبة في النهاية، المفاتيح في جيبي، ومعها علبة التبغ التي لم أستطع أن أفارقها من أجل ما هو قادم، ثم انطلقت إلى الخارج في قلق وتوتر.

لم ألحظ أثرًا للأمطار في محيط مسكني، لكن الظلام كان دامسًا، والغيوم كانت متراكمة في السماء في تشابك معقد، حتى القمر توارى خلف هذا الستار الرمادي في خضوع، وغادرت النجوم الصفحة السوداء كلها مرة واحدة.

قفزت إلى داخل السيارة، التي كانت تعاني من برودة الأجواء هي الأخرى؛ فلم تفلح محاولاتي في استنطاقها إلاّ بعد دقائق ليست بالقليلة، زمجرت السيارة في النهاية، واستعدت لالتهام الطريق، بعدما انطلقت بأقصى سرعة كالمجنون، أعاني من شدة الحُمّى، وضبابية الأجواء، وبرودة الجو، والظلام المحيط.

كنت أشعر بقدر من النشاط وأنا أقطع المسافة كالمجنون؛ فتلك السرعة أنعشت نفسي بروح المطاردة، والتعقب، فلا بد أن الذئب يرقد في مكان بعيد الآن، يعوي خلف مرتفع ما، في نشوة الانتصار؛ بعد أن أتمّ وجبته الشهية.

ما السر في تكرار الجريمة بعد قدومي إلى البلدة البائسة؟! هل هي مصادفة، أم نوع من التحدي وإثبات الذات؟!

وهل يستهين بقدراتنا إلى هذا الحد؟! أم أنه مجرم متعطش للدماء؟ وغير قادر على التحكم في تصرفاته!

أرجو أن يكون من ذلك النوع الأهوج، المتهور؛ فإن كان من النوع الذكي الحذر، فإن الرحلة ستكون مؤلمة للغاية، والخسارة فادحة إلى حد كبير.

فالاطفال هم مخزون البراءة في هذا الكون، وأغلى الكنوز على سطح الأرض، وانقراضهم يعني أننا في عالم لا يعرف الرحمة، وأرض لا تعرف البراءة.

كنت أضغط بأقدامي على دفة البنزين، وكأنني أسارع نحو إنقاذ الكون، وعلاج البشرية المتعطشة إلى الدماء.

obeikan.com

باتت تقفز الأسئلة في رأسي تباعًا؛ ترى كيف اُكْتُشِفت الجثّة في هذا الوقت المتأخر وهذا الظلام المحيط؟ أي مخبول يمر من تلك الصحراء في مثل هذا الوقت؟!

هل عبثت الأمطار بملامح الدماء وأراقتها للمرة الثانية؟ هل أثرت على درجة حرارة الجسد والقلب والكبد؟ هل شوهت ملامحها للمرة الثانية؟ أرجو ألاّ يحدث هذا.

كان العرق ينز من جبهتي، والتضخم يعلو في حلقي من شدة المرض، وزاد على هذا الإعياء؛ ملامح السعال للمرة الأولى، وكأن صدري لم يعد قادر على احتمال الهواء المفعم برائحة الدم المنتظر.

وصلت أخيرًا إلى اللافتة الواقفة كالفزّاعة على جانب الطريق، إن مسرح الجريمة على بعد كيلومترات قليلة جهة اليمين، أدرت مقود السيارة في جنوح مفاجئ جهة اليمين، بحركة مفاجئة أثارت حنق المحركات التي أطلقت صرخة اعتراض عالية، ثم توغلت داخل الصحراء، في قلب الظلام.

كانت الساعة قد قاربت على الخامسة، وما زال الوقت مبكرًا على لحظة الشروق، ربما ساعة أو أقل قليلاً، إلاّ إنني بعد دقائق من السير في قلب الصحراء، لاحظت شروقًا مصطنعًا يلمع في

قلب الصحراء، إنها أضواء القناديل، ومصابيح اليد، تشاركها مصابيح السيارات المشتعلة في الظلام.

إنه هناك ترقد الجثة في النقطة ذاتها تقريبًا، ضغطت على البنزين، وصلت إلى السرعة القصوى؛ في سبيل الوصول إلى مسرح قد تضيع آثاره في خضم الصدمة، ومعالم الارتباك.

وصلت إلى الجمع المضئ في قلب الصحراء، توقفت بسيارتي ثم ترجلت منها مسرعًا، أبصرت أمامي جمع قليل من الرجال؛ الرائد/ عصام، والملازم/ صلاح، وبعض أمناء الشرطة، والعمدة، ورجل ريفي يبكي على البعد، وتبدو على ملامحه معالم الصدمة.

كانوا واقفين في حزن وشجن إلى جوار العربات، أقبلت عليهم، ثم أرسلت لهم التحية في عجل، وبصوت نال منه المرض:

- السلام عليكم.

أجابوني بنبرة حزينة:

- وعليكم السلام ورحمة الله.

اقتربت من عصام في لهفة سائلاً:

- هل وصل رجال الطب الشرعي والنيابة العامة؟

أخبرني وهو ينظر في ساعته قائلاً:

- مُتوقّع وصولهم في أية لحظة.

اقترب مني صلاح في ضيق وهو يصيح:

- اللعنة على هذا الذئب، ما ذنب هذا الطفل البرئ! وما ذنب والده المكلوم الواقف مذهولاً هناك؟! إن الرجل يكاد ينهار من الحزن والألم.

ربتت على كتفه في مواساة وأنا أشاطرهم جميعًا هذه اللحظة المحزنة، فرغم قسوة الأحداث، وكثرة الجرائم، إلاّ أن قناع البلادة التي يرتديه رجال الشرطة في معظم الأوقات يتلاشى ويتمزق أمام جثة طفل لا حول له ولا قوة.

إنه أمر مذل، ومحبط، ثم انحنيت جهة الرمال من تحتي، والتقطت بعضًا منها، كانت مبللة من أثر الأمطار، ثم استأذنت عصام بأن أمضي جهة الجثة التي ترقد على بُعد خطوات قليلة، تحيط بها المصابيح في شكل دائري، وكأنها تشيعها بمعالم النور الشاحب.

●●●

# بقعة الضوء

كان المنظر مؤلمًا للغاية حينما اقتربت من دائرة الضوء التي تحيط بالجثة، ورغم إنني في مختلف القضايا، ألتزم بالموضوعية والحيادية إلى أقصى الدرجات، ولكن أي بشريًّا هذا! الذي يطيق أن يكون محايدًا في حضرة طفل ممزق بشكل بشع، إنها صورة مؤسفة، لا يطالعها المرء إلاّ في أعتى الحروب والصراعات، ولكن يبدو أن الذئاب كما القنابل! لا تفرق بين كبير أو صغير، رجل أم امرأة؛ فأنيابها لا تعرف سوى شهوة الدم، ومتعة التمزيق، ونثر الأشلاء يمينًا ويسارًا.

كانت جثة الطفل خالية من اللحم تقريبًا؛ قفص صدري برزت العظام المهشمة في أنحائه، والعنق تم التهامه بشكل مخيف، والوجه أيضًا لم يبقَ منه سوى النصف تقريبًا، والمعدة تبعثرت أشلاءها، وكأنما عبث بها قطيع من الذئاب.

يا إلهي، كم تمنيت أن يكون الطفل قد مات قبل أن يُلقى إلى الذئاب؛ فما أقسى أن تؤكل حيًا! وأن تنهش في جسدك الأنياب، مع كل شهيق وزفير ينتاب الصدر، ومع كل دقة خوف تنتاب القلب.

شعرت بفوران الحُمّى يتصاعد في جسدي كما الجحيم، وكأنما أنهكت تلك الصورة المفزعة ما تبقى من مناعتي المتقلبة.

أخذ العرق يتفجر من ملامح وجهي، شعرت بوهج الحريق يتصاعد من ملامحي، متصادمًا مع زعيق الهواء البارد.

أحسست أنني على شفا السقوط من أثر الدوار، إلاّ إنني تماسكت قدر استطاعتي، تباعدت خطوات للوراء، ثم أشعلت لفافة في حرص شديد، حتى لا أفسد معالم ذلك المسرح المرتبك من أثر الأمطار.

كانت دفقات الدخان تمضي في صدري كالسكين، ولكن الأمر كان يستحق المعاناة، ويستحق التشبث بمعالم التماسك.

التقطت آلة التصوير من حقيبتي التي باتت تتأرجح على كتفي، وكأنها أصيبت بذات الدوار من بشاعة المنظر، أقنعت نفسي أنني أقف أمام جثة هامدة مثل مئات الجثث التي طالعتها من قبل، لا أكثر ولا أقل، وظللت أردد في نفسي قائلاً:

– عليّ ان أفحص مسرح الجريمة بكل برود ودقة، كما في الإجراءات المعتادة، اللعنة!

تذكرت أنني لم أحضر معي دفتر الملاحظات، فناديت على صلاح أن يمرر لي قلمًا وبعض الأوراق؛ ولحسن الحظ، كان بحوزتهم ما أطلب، ثم أخذت أنفث دخان لفافتي، حتى أوشكت على الزفير الأخير، ثم أطفأتها بعيدًا عن مسرح الجريمة، واحتفظت بما تبقى منها في جيبي، وعدت مسرعًا إلى الدائرة ذاتها، وأنا أدرك تمامًا أنني متوتر، ومضطرب، بفعل ما رأيت وبفعل تلك الحُمّى اللعينة أيضًا.

ولكن سرعان ما رتبت أفكاري بكل حرص، وبدأت في تسجيل وضعية الجثة، مستلهمًا تلك الاتجاهات التي حددتها في المرة السابقة.

كانت الجثة ممددة من جهة الرأس، ناحية اتجاه الشمال الشرقي، لا أعرف لماذا آثرت أن أسجل هذه النقطة، في جريمة يُفترض فيها أن الذئاب قد حركت الجثة بشكل كبير.

لكن ما زال هذا الأمر غير محسوم، هل كان الطفل حيًا حينما باغتته الذئاب؟ أم كان ميتًا بالفعل؟ إن كان الفرض الأخير، فلا أعتقد أن وضعية الجثة قد تحركت بشكل كبير.

ظللت أكتب في سرعة بعض الملاحظات المبهمة؛ (وضعية الجثة قد تفيد في معرفة إذا ما كانت مرتبطة بطقس ديني أم لا)



obeikan.com

ثم أخذت ألتقط العديد من الصور لتلك الوضعية من مختلف الجهات.

انتقلت إلى وصف الجثة، وكان ما يهمني فيها ما تبقى من الجزء السفلي للصبي، وهنا كانت المفاجأة؛ لقد تم التهام العنق بشكل كامل تقريبًا،والقفص الصدري أيضًا، باتت عظامه مسحوقة؛ المعدة تآكلت بما يعلوها من لحم.

أما الجزء السفلي، فكان شبه كامل تقريبًا؛ بعض الأجزاء ملتهمة من الفخذين، لكن الغريب هذه المرة، أن الأعضاء التناسلية للصبي كانت موجودة بشكل يكاد يكون كاملا!

دونت تلك الملاحظات في عجب شديد، ولكني قررت أن أؤجل طرح الأسئلة حتى تتضح الصورة بشكل أكبر.

وانهمكت في التقاط الصورة، لأجزاء الجسد المتآكل؛ صور للعنق، والصدر، والجزء السفلي، والمعدة، والمعصمين؛ فربما كان الفتى مقيدًا قبل عملية القتل أو الالتهام.

الغريب أيضًا والذي تنبهتُ إليه بعد أن زالت تلك الغشاوة التي ألقتها الحُمّى على ذهني وعقلي: أن الصبي كان يرتدي ملابس، بعكس كل الجرائم السابقة، فقد كان الأطفال منزوعي الملابس تمامًا!

سجلت كل هذا، ولكني شعرت أن الأمر غريب جداً هذه المرة؛ إن هذا ليس بأسلوب الذئب الذي أبحث عنه، ولا بد أن الأمر قد ازداد غموضًا.

سجلت ملاحظات عن كمية الدماء المحيطة بالجثة، لم تكن تُذكر، فلا بد أن الأمطار قد أراقتها، وأفقدتها لزوجة واجبة، فسالت بين مسام الرمال إلى الأبد.

أغلقت دفتري بعدما انتبهت إلى سيارتان قادمتان من قلب الصحراء، نظرت في ساعتي فوجدتها على مشارف الخامسة والنصف، ولم يتبقَ على الشروق سوى دقائق قليلة.

اقتربت السيارتان، حتى وصلتا إلى المكان الذي يقف فيه الرجال على بعد خطوات من مكان الجثة، آثرت أن أعود إلى هناك لكي أستطلع الأمر، مضيت خطوات للوراء، كان يتقاطع معها نحيب ذلك الفلاح الجالس القرفصاء في انهيار على البعد، والذي أيقنت أنه أحد ذوي هذا الطفل الصريع.

أقبلت على الرجال المترجلين من العربات القادمة، كانوا ستة أشخاص، يتوسطهم شاب يبدو عليه أنه صغير في السن، ويرتدي حلة فاخرة، ذو جسم ضئيل، وقسمات دقيقة، جاهد في محاولة تضخميها ورَسْم ملامح الصرامة على وجهه.



obeikan.com

أصابنـي الإحبـاط والضيـق بشـكل مفاجـئ، فـلا بـد أن هـذا هـو وكيـل النائـب العـام، ويبـدو أنـه حديـث في سـلك النيابـة، وهـذه القضيـة بحاجـة إلـى رجـل خبيـر ومحنـك.

كان أثـر النعـاس بـادٍ عليهـم جميعًـا، وخاصـة ذلـك الرجـل الخمسـيني، الطويـل بشـكل لافـت، وذو أنـف حـادة وطويلـة أيضًـا، ووجـه مسـتطيل، التهمـت تلـك النظـارات العريضـة نصـف ملامحـه، ويرتـدي ملابـس متراكمـة؛ لحمايـة جسـده مـن ذلـك الجـو القـارس.

حيّـا عصـام ذلـك الشـاب المرتـدي لتلـك الحلـة الفاخـرة، في نفـاق مصطنـع وهـو يصيـح:

- أيمن بيه، كيف أحوالك يا حارس العدالة الأمين؟

بادلنـا السـلام باليـد في جديـة مصطنعـة، وتفاخـر مزيـف، وهـو يسـلم علينـا بعـد تعـارف قصيـر مكـررًا عبـارة (أهـلا وسـهلاً، أهـلا وسـهلاً) في تكـرار يشـبه مراسـم العـزاء، ثـم التفـت إلـى الجميـع في تعجـرف قائـلاً:

- حسنًا، أين الجثة؟

أخبـره عصـام أنهـا ترقـد هنـاك، وسـط هالـة الضـوء التـي باتـت تخفـت مـع تباشـير الشـروق البازغـة في السـماء، صـاح:



obeikan.com

- يا دسوقي، تعال ورائي.

ثم ملتفتًا للرجل الطويل ذو النظارات السميكة قائلاً:

- وأنت أيضًا يا دكتور إبراهيم، أريد أن ننتهي من عملية المعاينة بأسرع وقت ممكن.

ثم تابع محذرًا:

- ولكن الدقة مطلوبة إلى أقصى درجة.

قاطعه الدكتور إبراهيم في مداهنة قائلاً:

- أفضل أن تظل هنا يا أيمن بيه مع السادة الضباط، وأنا أعدك بأن تتم المعاينة على أحسن ما يكون.

شعرتُ أن الطبيب يحاول أن يتخلص من وكيل النيابة الشاب، كما شعرت أيضًا أن تلك المحاولة، ماهي إلاّ محاولة للتخلص من عبء قلة خبرته التي يحاول أن يداريها بكثير من التكبر، إلاّ أن أيمن صاح في غضب:

- ماذا دهاك أيها الطبيب المحترم؟ هل تحاول أن تعلمني كيف أعاين مسرحًا للجريمة؟ تَفَضّل كما قلت لك، نريد أن ننتهي من هذا الأمر بكل حرفية.



obeikan.com

تقدما إلى الأمام وبصحبتهم عصام، إلاّ إنني فضلت الوقوف مرتكنًا على سيارة الشرطة إلى جوار صلاح، بعدما وضعت الأوراق والقلم في حقيبتي مع آلة التصوير، ثم أشعلت لفافة، وأنا أنتظر تلك المهزلة التي ستحدث بعد قليل، وقد كان حدسي في محله تمامًا؛ فمع الأنفاس الأولى لتلك اللفافة اللاذعة، حتى أبصرت وكيل النيابة الشاب، يرفع منديلاً من جيبه ثم يمرره إلى وجهه، ظللت أراقبه مبتسمًا، وأنا ألكز صلاح في كتفه؛ حتى ينتبه إلى تلك الكوميديا البشرية، أبصرته يتراجع إلى الخلف، وقد زال عنه قدر كبير من التكبر، ومال كتفيه إلى الانحناء في هلع، ثم هرول إلى الوراء سريعًا، إلى منطقة بعيدة عن مسرح الجريمة، وأخذ يتقيأ ما في جوفه في تكرار مؤلم.

كتمت ضحكة أوشكت على أن تنفجر من فمي، بينما لم يتمالك صلاح نفسه؛ فأطلق ضحكة عالية، اضطرتني أن أصحبه وأسير به بعيدًا للوراء؛ محاولاً إنقاذ الموقف من مزيد من الحرج المتوقع.

حينما توقفت خطواتنا على بعد أمتار أخرى، قاطعتُ صلاح في انفعال قائلاً:

- ماذا دهاك أنت أيضًا؟! آلا تستطيع أن تتمالك نفسك في مثل هذا الموقف؟ أظن إننا بصدد موقف محزن للغاية، ولا يليق بك أن تفعل مثل هذا الأمر.

قاطعني مبتسمًا في سذاجة قائلاً:

- لقد كنت تعرف ماذا سيحدث أليس كذلك؟

لم أستطع أن أمنع ابتسامة ارتسمت على ملامحي قائلاً:

- ولنفرض، ولكن هذا لا يبرر ما فعلت الآن.

قاطعني مبتسمًا:

- إنني أكره المتعجرفين، وأظنك مثلي.

وتابع في تحاذق:

- كيف عرفت أن هذا سيحدث؟!

●●●

obeikan.com

# متاعب المهنة

كان الظلام قد ولّى في أثناء جدالنا حول ما يليق ولا يليق في حضرة جريمة منكرة كهذه، إلاّ أن الضابط الشاب كان في حالة غريبة للغاية، ربما أقرب إلى بلادة الحس، وهو يلح في اكتشاف سر معرفتي لما سيحدث لمعاون النيابة عند مسرح الجريمة، كان أمر لافتًا، وربما غير مبرر على الإطلاق، ولكني حاولت في جدالي معه أن أعرف سر هذا الموقف؛ لهذا سألته قائلاً:

– حسنًا، سوف أخبرك كيف استطعت أن أتنبأ برد فعل ذلك المعاون الشاب.

على أن يخبرني لماذا يبدو عليه عدم الاهتمام بما حل بهذا الطفل، بل ولماذا ليس مهتمًا حتى في الكشف عن هذا الغموض الذي يعتري تلك الجريمة، لكنه نظر إليّ في تعجب ثم تنهد قائلاً:

– إنني على عكسك تمامًا، لا أرى سببًا يدعو للدهشة، إن المنظر حقًا مؤلم للغاية، ولكن لا تنسى أنني عاصرت جريمتين مثل هذه الجريمة في الشهور السابقة؛ في المرة الأولى كانت الصدمة، وفي الثانية كان الألم، أما هذه المرة لا بد أن أتصنع التماسك، وأن أتحصن بإكسير البلادة!



obeikan.com

ثم تابع في جدية:

- وهنالك حقيقة أخرى تحفظت في ذكرها منذ لقائنا الأول، ولكن أظن أنه من المناسب أن أقولها الآن وهي يا سيادة الرائد المحنك: أنّ ما تسعى وراءه مجرد وهم، إنك رجل خبير في عالم الجرائم كما سمعت، ولديك إصرار وفضول مدهشين، ولكنك تتصور أن كل البشر مجرمين، وأظنك تشك في كل من حولك! ولا تريد أن تصدق أن ما يحدث في هذه القرية مجرد ذئب يلتهم أطفالاً صغار، لا وجود لشبهة جنائية في هذه القضية، المجرم يتحرك في ذهنك أنت فقط سيدي.

ازدادت حيرتي من كلمات الضابط الشاب، فإنني لم أختره لأنه بارع في مجال البحث، ولكني رأيت فيه سذاجة الشبان الصغار وتهورهم، لهذا كنت أطمح من ورائه: أن يرى الأمور بنظرة مختلفة، بوجهة نظر أخرى، فكلما تكاملت الصور، كان الحل أكثر سهولة، لكني في الحقيقة لم أنتظر منه تصوراً مثل هذا! مع هذا أشعلت لفافة في ضيق، من أثر ذلك الالتهاب الذي بات يعشش في حلقي قائلاً له:

- حسنًا دعني أخبرك كيف تنبأت بمسلك وكيل النيابة، وبعدها ستعرف أنك مجرد ضابط كسول العقل، وحديث الخبرة،

obeikan.com

فالفارق بيني وبينك مئات الأيام، وآلاف الساعات، فعندما كنت ملازمًا صغيرًا مثلك، توفي رجل بشكل طبيعي، وكالمعتاد استطاع أهل المتوفي أن يستخرجوا تصريحًا للدفن، وتم إيصاله إلى مثواه الأخير بكل هدوء، ولكن بعد أيام قليلة، تقدم أحد أقارب المتوفي ببلاغ إلى النيابة، يتهم فيه شقيق المتوفي الأصغر بأنه قد سعى للخلاص منه في وقت سابق، على خلفية نزاع على الإرث، وأنّه يشك أن الوفاة لم تكن طبيعية، وأن بها شبهة جنائية، ولسوء الحظ أو حسنه، كان معاون النيابة في هذه المنطقة التي تتبعها الواقعة حديث السن، وحديث العهد كصاحبنا هذا، ولكنه على عكسه كان يداري قلة خبرته بمزيد من الحماس الذي يصل إلى حد التهور، ولهذا وبكل حماس، حينما تلقى هذا البلاغ، أمر بفتح التحقيقات، واستخراج الجثة من أجل تشريحها ومعرفة سبب الوفاة، وفي تمام الساعة الثانية مساءً، بعدما انتهى الطبيب الشرعي من كثير من المهام الأخرى، توجه إلى مكتب معاون النيابة هذا، والذي جمعتني به صداقة وود، بحكم تقارب السن والحماس والجدية في العمل، دلف الطبيب إلى داخل المكتب مخاطبًا إياه قائلاً:

- حسنًا سيدي، إنني مستعد لإستخراج الجثة كما أمرت في التحقيق الرسمي.

فأجابه معاون النيابة في سذاجة:

- حسنًا، توكل على بركة الله، وأخبِرْني بالنتيجة بشكل فوري؛ فإنني أشك في وجود شبهة جنائية.

وهنا ضحكت أنا وذلك الطبيب المخضرم الذي أجابه:

- لا يا سيدي، لا يمكنني أن أفعل هذا وحدي، فلا بد قانونًا أن تنتقل معي، وأن يتم فتح محضر رسمي يُثبَت فيه واقعة استخراج الجثة، ونتيجة المعاينة.

ضحك صلاح في جنون قائلاً:

- لا تقل لي أنه فعل ذلك الأمر!

أجبته قائلاً:

- بالضبط، فقد انتقلت معهم لكي ننهي هذه الورطة، فليس من الممكن أن يتراجع وكيل النيابة عن ذلك الأمر الذي قرره في تحقيق رسمي، تحملنا عناء هذه المغامرة المخيفة.

وتابعت متنهدًا في هلع:

- أظنك لم ترى جثة تم استخراجها من مدفنها من قبل، وخاصة بعد الوفاة بأيام قليلة، إنه أمر رهيب، ومقزز للغاية.

سألني صلاح في فضول:

- حسنًا، وماذا حدث بعدها؟

أجبته قائلاً:

- بالفعل اكتشف الطبيب الشرعي وجود شبهة جنائية، وهي عبارة عن كسر في فقرات العنق! ولا تتعجب كيف لم يكتشف من رخص بالدفن مثل هذا الأمر، فإنني أحدثك عن أيام سابقة، وربما حتى الآن كثير من الأمور تتم كما نقول دائمًا بالبركة وهو في حقيقة الأمر مصطلح مهذب لفعل الإهمال.

قاطعني صلاح:

- وماذا حدث لمعاون النيابة بعدها؟

أجبته ضاحكًا:

- بعدما تقيّأ ما في جوفه لمدة أيام تالية، وفارقه النوم لأيام أطول، أقسم قسمًا مغلظًا: أنه لن يستخرج أية جثة أخرى في المستقبل، حتى وإن رأى قاتلها بنفسه، فما دفن لا يمكن أن يعود من جديد.

obeikan.com

قاطعني صلاح في دهشة:

- وهل فعل هذا حقًا؟

أجبته في ضيق:

- لعله فعل! فعل مثل ما فعلت أنت الآن؛ اعتبر أن العالم خالي من المجرمين، وأنه مجرد ذئب يأكل البشر!

ألقيت كلماتي الأخيرة على مسامع صلاح، وكأنني غرست آلة حادة في قلبه، ولكني كنت متعمدًا ذلك، حتى يفيق مما قاله، وألاّ يتهاون في حقوق البشر، فمن الظلم ألاّ يجد الضعفاء قوة تحميهم في هذه الغابة التي نعيشها، ألقيت عليه كلماتي ولم أنتظر ردًا منه، بل تراجعت للوراء، فأبصرت معاون النيابة وقد تمالك نفسه قليلاً، وتراجع للخلف بعيدًا عن موضع الجثة هو وكاتبه البائس، فآثرت أن أتعرف عليه، وأن أخفف عنه الصدمة؛ فمن المؤلم أن يظل هنالك حاجز بينه وبين موضع الجثث في الأيام المقبلة هو الآخر.

إن البحث الجنائي أمر يتطلب الجدية والمعاناة، والتساهل في أية نقطة تعني مجرمًا طليقًا في الفضاء، يجب في عالمنا هذا أن تعرف متى أن تكون قريبًا، ومتى تكون بعيدًا.



obeikan.com

إن المحقق كما تعودت أن أعمل يشبه المجرم أيضًا، ولكنه مجرم صالح، وعليه أن يعرف: متى عليه أن ينقض، ومتى يفر بعيدًا.

قطعت خطوات للخلف جهة موضع الجثة، لكني توقفت عند سيارة الشرطة (البوكس) التي يجلس فيها بعض الجنود في نعاس، وكأنه تابوت للأموات، وليس صندوق للأحياء، أقبلت عليهم فانتفضوا في اهتمام، فأشرت لهم بيدي أن يهونوا على أنفسهم، ثم سألتهم:

- هل أحضرتم معكم مشروبات ساخنة؟

فمن المعتاد في بعض الحملات في الأجواء الباردة أن يحضر الضابط معه، إناء لحفظ الشاي أو القهوة؛ فربما تطول السهرة في مكان ناءٍ مثل هذا، ولحسن الحظ، وجدت معهم إناء ممتلئ عن آخره بالشاي الساخن، أمرتهم أن يملؤوا قدحين من البلاستيك الأبيض، ثم حملتهم ومشيت باتجاه معاون النيابة، ثم توقفت إلى جواره وأنا أقدم له قدحًا من الشاي صائحًا في ابتسام:

- صباح الخير يا أيمن بيه.

انتزع الشاي مني بلهفة وهو يرد هذه المرة في تواضع وتجاوب:

- صباح الخير يا سيد...؟

أجبته:

- رائد/ أنور النواوي، مصلحة الأمن العام.

أخذ يهز رأسه في ترحاب قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً.

قاطعته قائلاً:

- أرجو أن تكون معدتك الآن في حال أفضل.

وتابعتُ في مجاملة:

- إن هذا أمر معتاد؛ حينما ينتقل المرء من المكاتب الدافئة، إلى الأماكن الباردة، فقد يصيب المرء اضطراب مفاجئ في المعدة.

حاول معاون النيابة أن يتمسك بهذا التفسير لحفظ ماء وجهه قائلاً:

- نعم، نعم ،هذا هو ما حدث بالضبط، إنها آثار برودة في المعدة.

وتابع وهو يرتشف الشاي في تلذذ:

- إن اصطحاب الشاي في مثل تلك المهام فكرة رائعة.



obeikan.com

مررت له لفافة فتقبلها بتأدب، ثم بادرته قائلاً:

- هل هذه هي المعاينة الأولى لك؟

أجابني في براءة:

- نعم.

ثم تابع وهو يتنهد في ألم:

- المرة الأولى؛ فقد عُينت حديثًا، ومن المفترض أن ينتقل من هو أقدم مني، ولكن كلهم غير متواجدون الليلة، إنه النصيب.

قاطعته في جدية قائلاً:

- إنها المرة الأولى ولن تكون الأخيرة؛ فعليك أن تعتاد على مثل هذا الأمر.

طالعت بعض الدموع تتألق في عينيه قائلاً وهو يشير بيديه في انفعال إلى مكان الجثة:

- كيف أعتاد على مثل هذا المنظر، إنه طفل صغير لا ذنب له، أي زوجة أو أم تغفل عن صغارها حتى تأكلهم الذئاب؟!

ضحكت هذه المرة في سماجة؛ من فرط براءة هذا الشاب قائلاً:



obeikan.com

– يا أيمن بيه، وما أدراك أن له أم أو أب؟! إن العالم مليء بالقصص المحزنة، وقد يكونوا موجودين حقًا، ولكن السعي خلف الرزق، ومتاعب الحياة، تفعل بالناس الأفاعيل.

وتابعتُ في تحاذق:

– وربما في أيدينا على الأقل أن ننقذ مزيدًا من الأطفال، وأن نتجنب مزيدًا من هذه المشاهد مستقبلاً.

نظر إليّ في استجداء قائلاً:

– وكيف هذا؟

أجبته قائلاً في تحدي:

– أن نتعاون في القبض على هذا الذئب، مهما كان الثمن.

●●●



obeikan.com

# المريض الصامت

تركت وكيل النائب العام بعد هذا الحديث القصير؛ بعدما شعرت أنه قد تماسك إلى حد بعيد، وصار أكثر ثقة بالنفس، وتوجهت جهة الطبيب الشرعي، الذي انتهى تقريبًا من المعاينة المبدئية للجثة، وأصدر الأوامر لمعاونيه بالسير في إجراءات رفع الجثة، بعد تصويرها واتخاذ اللازم بشأن حفظها، وعدم التأثير على ما تبقى من أدلة في ملامحها.

تنحيت بالطبيب جانبًا، بعدما أخذت بساعده خطوات قليلة بعيدًا عن سرب الرجال المنشغلين، الذين باتوا أكثر نشاط مع دقات جرس الصباح المنعش، وعلا صوت وكيل النيابة الذي تجرأ أخيرًا، ووقف فيما بينهم، مصدرًا التعليمات بكل حزم وقوة، سار معي الطبيب في فضول، بعدما عرفته بنفسي، بينما رد على الصيغة ذاتها من التعارف قائلاً:

- إنني الدكتور/ إبراهيم شوقي، رئيس الفريق القائم على متابعة هذه القضية.

شكرت له المجهودات التي يقوم بها، ثم بادرته قائلاً في فضول:

- هل تظن أن تلك الجرائم ماهي إلا أحداث طبيعية؟ مجرد وحش يهاجم مجموعة من الأطفال الصغار؟

أزاح نظارته إلى أعلى بواسطة إصبعه، في حركة تلازمه معظم الوقت، وكأنه يتخلص من عبء أنفه الطويل المائل للحمرة في هذا الجو البارد قائلاً:

- بالطبع لا، من المؤكد أن هنالك شبهة جنائية وراء الأمر، ولكن الأزمة، وكل الأزمة: أن الطبيب الشرعي غير قادر على استنطاق الموتى مثله مثل باقي البشر!

وتابع متفلسفًا:

- إن الجثة في نظري، مثل المريض الصامت، المكبل بقيد من السكون والصمت، لا يمكنه أن يعبر عما ألمّ به، وعما فيه من ألم.

قاطعته في انشراح قائلاً:

- نحن متفقون تمامًا، وأوافقك الرأي بشأن هذا التشبيه البليغ، إن الجثث في عالم الجريمة، ماهي إلا مريض صامت، وغامض أيضًا، ولكن يبقى أمامنا طريقين لاستنطاق الموتى؛ هما البحث عما جرى، وأيضًا أن نفتح مندل الحقائق بواسطة العلم

obeikan.com

الحديث، لنرى تقريبًا معالم ما جرى؛ ولهذا أريد أن أسألك عن ملاحظاتك حول ما طالعت من جثث، ولكن قبلها قل لي هل عاينت جميع الجثث في هذه القضية؟

حك جبهته في حركة لا إرادية قائلاً:

- عاينت حتى الآن ما يقرب من عشرة جثث، كلها بكل أسف لأطفال في عمر الزهور.

واستطرد في استنكار:

- لا أعرف ماذا حدث لأهل هذه القرية! وأية لعنة أصابتهم في السنوات القليلة الماضية!

وتابع في حركات خطابية منفعلة:

- إن العالم يمضي نحو الجحيم، أصبح ساحة للصراعات الدامية.

ثم تساءل في دهشة:

- هنا في الريف الهادئ قاتل متسلسل؟! إن هذا جنون، وهذا النمط غريب عن بلادنا بالأساس، إنني لست مستريحًا لما يحدث.

obeikan.com

قاطعت ذلك الشلال المنهمر من فمه قائلاً:

- أرى أنك تجزم أننا أمام سلسلة من جرائم القتل، وهنا يجب أن أسألك عن أدلتك على مثل هذا القول؟ وما هي أهم ملاحظاتك على جثث هؤلاء الصغار؟ هل تم رصد بصمات بشرية في مسرح الجريمة؟ أو بقايا من آثار إنسان آخر؟ شخص بالغ مثلاً، أو شعيرات عالقة،أو بقايا من التبغ، أو بقايا ملامح اتصال جنسي؟

ثم تابعت في انفعال:

- أعني أي شيء يدل على هوية شخص آخر تم كشفه عن طريق الـ (DNA) مثلاً؟

تبسم الطبيب في سذاجة، وهو ينظر إليّ كمن ينظر إلى كائن قد هبط من الفضاء قائلاً:

- سيدي، إننا لم نصل إلى هذه الدرجة من التطور في التحليل، فالأجهزة لدينا عتيقة للغاية، كما أن الجهات القضائية من الأصل، لا تعتبر التحليل الوراثي من قبيل الدليل الدامغ الذي يمكن توجيه الاتهام على أساسه.

قاطعته مرة أخرى في محاولة للسيطرة على نهم هذا الطبيب لممارسة الكلام قائلاً:



obeikan.com

- حسنًا، ولكن هذا لا ينفى أنه يمكن إثبات ذلك من الكشف الظاهري.

وتابعت في ضيق:

- وسؤالي هنا بكل تحديد ودقة، هل تعرض هؤلاء الفتية لاعتداء جنسي واضح المعالم؟

خلع الطبيب نظارته، وأخذ يحك أجفانه كمن أرهقه السهر قائلاً:

- أكاد أجزم أن هذا لم يحدث على الاطلاق، لا أثر لمثل هذا الأمر، لا أثر سوى لأنياب الذئاب، وملامح أسنانهم الشرسة.

قاطعته:

- حسنًا بالنسبة لهذا الأمر، هل تلك الآثار تدل على أنها لذئب واحد، أم أن هناك تباين في مقياس آثار الفك على أجسادهم؟

أجابني:

- أعتقد أن هنالك اختلاف واضح، يوحي بأنه أكثر من ذئب.

oreilkan.com

سألته مندهشًا:

- إذا لم يكن هنالك دليل على أن جريمة قتل قد حدثت، وما هي إلا بقايا فعل الذئاب، فكيف تكون متيقنًا أن هنالك شبهة جنائية في الأمر؟

قاطعني في التفلسف ذاته:

- النقطة ذاتها المريبة؛ كيف وصل هؤلاء الأطفال إلى هنا؟ إلى تلك الصحراء المقفرة! وليس من المتصور أن الذئاب قد انقضت عليهم في منازلهم، ثم سحبتهم وراءها إلى هنا! إن هناك سر خفي وراء هذا الأمر؛ ولهذا فإن إحساسي يؤكد أن هنالك جريمة ما تتم في هذا المكان الملعون.

أصابني حديث الطبيب عن هواجسه وأحاسيسه بقدر كبير من الإحباط؛ فإذا ما كان هذا هو حال الطبيب العالم، فماذا يفعل المحقق إذن! قاطعته في نبرة متشنجة:

- حسنًا دكتور إبراهيم، أرجو ألاّ تأخذ كلامي كنوع من التدخل في اختصاصك، ولكن أرجوك أن تفحص الجثة جيدًا، أريد أن أعرف إن أمكن ساعة الوفاة تحديدًا، وماذا أكل الصبي قبل موته؛ حلوى، طعام آخر، وأريد أن تُفحص جيدًا إن كان هنالك اعتداء جسدي أو جنسي، وأعرف أن ما أطلبه أمر صعب، في ظل حالة الجثة المزرية، ولكني متأكد أنك أهل لها.

أجابني الطبيب في ثقة:

- لا تقلق سيادة الضابط، فأنا مثلك يملؤني الشغف لحل هذا اللغز، وسأراعي كل ما طلبته أثناء التشريح.

تركت الطبيب بعدما لاحظت أن الرجال قد بدؤوا الاستعداد للرحيل بعدما تم رفع الجثة، سار الطبيب ناحية رجاله، في حين انضممت إلى عصام وصلاح اللذان كانا منهمكين في الحديث مع وكيل النيابة، انتبهت بعدما وصلت إلى مكانهم القريب، إلى ذلك الفلاح الجالس القرفصاء منذ قدومي، في حالة ذهول تامة، وكأنما قد مات هو الآخر في المسرح ذاته! قاطعت حديثهم سائلاً في فضول:

- من هذا الرجل الجالس هناك؟ هل هذا هو من اكتشف الجثة؟

صاح عصام وهو ينفث دخان لفافته في نشاط:

- لا، إنه عم الطفل القتيل، هو من أبلغنا عن اختفائه، وأول ما تبادر إلى ذهني عندما علمت أن هنالك صبي قد اختفى من مرقده في جنح الليل، أنه لا بد من أن الذئب قد عاد يمارس هوايته من جديد، اصطحبتُ الفلاح والقوة معي وجئنا إلى هنا، معنا العدة والمصابيح، وما إن رآه غارقًا في دمائه وسط الأمطار،

حتى أخذ يلطم ويندب ويبكي، كمن أصابه مس من الشيطان، وجاهدنا كثيرًا في السيطرة على جنونه المفاجئ، حتى هدأ قليلاً، وجلس كما تمثال بوذا في مكانه صامتًا حتى هذه اللحظة.

قاطعه ايمن وهو يرتشف موجات قدح جديد من الشاي، وكأنما أدمنه في الساعات القليلة الماضية قائلاً:

- سوف نصطحبه معنا إلى سراي النيابة؛ لنباشر معه التحقيق، وأرجو ألاّ يظل ذاهلاً هكذا؛ فيبدو أنه قد تعرض لصدمة عصبية عنيفة حينما طالع الجثة.

قاطعتهما قائلاً:

- إذن هذا عم الصبي؛ فأين أبوه إذن؟! هل الطفل يتيم الأب؟

أجابني صلاح قائلاً:

- لا، إن والده كان مزارعًا أجير، لكنه الآن يعمل في طائفة المعمار في إحدى القرى الساحلية الناشئة، وكان العم أمينًا على الصبي وزوجة أبيه في غياب الوالد.

قاطعته:

- تقصد أنه يقيم معهم في المنزل ذاته؟

أجابني عصام:

- لا ، إن من اكتشف اختفاء الطفل،هي زوجة أبيه، ومن بعدها هرعت وهي تصرخ وتولول إلى دار عمه القريب من مسكنهم، وأخبرته باختفاء الغلام.

قاطعه أيمن وهو ينظر في ساعته ضاحكًا في انشراح وعفوية:

- أظن أنه من الممكن أن نستكمل الحديث في سراي النيابة؛ فقد أوشكت أن أتجمد من البرودة.

أجبته في انفعال:

- هنالك أمر لا بد أن أقوم به أولاً، قبل أن تصطحب العم إلى سراي النيابة، وأرجو أن تأمر بذلك في محضرك يا سيادة الوكيل.

نظر لي في فضول قائلاً:

- وما هو ذلك الأمر؟!

أجبته قائلاً:

- أريد أن أصطحب العم، وأن أعاين منزل الطفل وغرفته، ومن هناك سوف أبدأ التحقيقات، ثم نعود إلى سراي النيابة؛ لنكمل الحديث والتحقيق.



obeikan.com

أجابني بعد لحظات من التفكير قائلاً:

- لا مانع في ذلك.

ثم نادى على كاتبه:

- يا دسوقي، اكتب عندك، أمرنا نحن أيمن النشائي، وكيل نيابة ٦ أكتوبر، بالتصريح لقوة الشرطة بالانتقال إلى منزل المدعو/ عبد الجواد السيد مرزوق؛ للمعاينة ومباشرة التحريات، وأقفل المحضر في ساعته وتاريخه.

●●●

obeikan.com

# بوصلة الشك

وصلنا إلى دار ذلك الأب المكلوم، المدعو/عبد الجواد،على مشارف الساعة الثامنة صباحًا، كنت سائرًا بسيارتي خلف أيقونة الشرطة الخالدة (البوكس) التي كان صلاح يحتل مقعدها الأمامي، في حين رقد في خلفية السيارة العم المصطدوم، ويسمى/ مرزوق السيد مرزوق، وهو الشقيق الأكبر لعبد الجواد، وإلى جواره بعض العساكر، وأمين الشرطة الذي سيتولى كتابة المحضر أثناء المعاينة.

كان الجو في هذا الصباح أكثر صفاءًا من ليلة البارحة، بعدما غسلت الأمطار ذلك الغبار الملوث، العالق في ذرات الهواء على الدوام، الأمر الذي أشعرني بقدر من الانشراح بأن الأمور سوف تنجلي قريبًا، وسأصل حتمًا إلى حل لهذا اللغز المحير.

كانت العربات تسير في هدوء بعدما اخترقنا أطراف القرية، وكانت الأرض طينية من أثر الأمطار، والمشي في تلك الأجواء يكون عسيرًا للغاية، وقد تصورت للوهلة الأولى أنه في ذلك الوقت المبكر، ستكون القرية أكثر هدوءًا، إلا أن المفاجأة كانت في تلك المظاهرة التي كانت تنتظرنا أمام منزل الصبي.

obeikan.com

توقفت العربة في النهاية على الضفة الثانية من ذلك المصرف العريض الذي لازمنا منذ اقتربنا من بدايات القرية، كان المنزل على الضفة الثانية، مما يعني أنه كان من المحتم علينا أن نترجل جميعًا؛ لكي نمر من على تلك المَعَدِّيّة المتهالكة إلى الضفة الأخرى، حيث يقبع المنزل على بعد خمس مئة متر من مكان تلك المَعَدِّيّة، والحقيقة أنها لم تكن مَعَدِّيّة بالمعنى الحرفي، ولكنها بعض من جذوع الشجر الطويلة، التي تم تشبيكها بطريقة بدائية؛ لتشكل معبرًا قد يسقط المرء منه في أية لحظة!

تجاوزنا المَعَدِّيّة بصعوبة بالغة، وبحركات بهلوانية كان يتقدمنا العم الصامت في ذهول، والذي تعمدت ألاّ أنبش في حدود ذاكرته، وأن أتركه في محراب صمته حتى نصل إلى المنزل.

وبعد قليل من السير على تلك الضفة، وصلنا إلى المنزل الطيني، المصنوع من الطوب اللبن، بيت متواضع، يشبه البيوت التي تسبقه على الضفة ذاتها، لكنه ربما كان أكبر حجما! بشكل يخالف ما سمعته عن ضيق ذات اليد لوالد الصبي المجني عليه، ولكني كنت حريصًا على ألا أستبق الأحداث؛ فقد كانت بوصلة الشك تتأرجح بين مئات الاحتمالات، كنت أمضي في هدوء،كآلة فوتوغرافية، تسجل من الصور ما يفوق احتمالها؛ لتعود وتفرغها أمامي من جديد في نوبة من البحث والتحليل.

لم أكن واعيًا لتعليقات صلاح السمجة من حولي، وهو يستنكر معالم الريف البائسة، حتى وصلنا إلى الوجهة المنشودة، ولم يكن الأمر بحاجة إلى قدر كبير من الذكاء، لاكتشاف موقع المنزل؛ فقد تجمع أمامه العديد من الأهالي، كما كانت تجمعهم العديد من المشاعر المتناقضة؛ ما بين الشعور بالفجيعة، والمواساة، والغضب، والهلع و...

رأيت على البعد العمدة ورجاله من الغفر، يجاهد في السيطرة على تلك الحالة من الفوران بين الناس، أشعلت لفافة، ورسمت الجدية على ملامحي، في حين كان يمضي مرزوق منكس الرأس أمامنا.

كنت واثقًا من حرج الموقف؛ ولهذا آثرت أن أتخذ زمام المبادرة قبل أن ينقلب الجميع علينا؛ أسرعت من خطواتي أمام الرجال، وقد تعمدت أن أبرز السلاح في جنبي، وقد وضعت يدي عليه، وقبل خطوات من الأهالي المتجمعة، ناديت على العمدة في حدة وغلظة قائلاً:

- السلام عليكم يا عمدة.

أقبل عليّ في تهلل مصطنع، لكنني قطعت عليه وصلة النفاق صارخًا:

obeikan.com

- إننا هنا في تحقيق رسمي، ولا يجوز التجمهر، وهذا يعد جريمة جنائية؛ ففي هذا إعاقة لسير التحقيقات، أمامك خمس دقائق، ولا أريد أن أرى مخلوقًا أمامي.

انتفض العمدة من مسلكي الغاضب، ثم هرع إلى الغفراء صائحًا:

- هل سمعتم ما قاله سعادة البيه؟!

تحفز الغفراء، وأخذوا يهُشّون الناس كما الأغنام، وهم يتمتمون في غضب:

- اهو دا اللي إنتوا فالحين فيه؛ دايما تيجوا على الغلابة!

بينما قال آخر:

- إنتوا ماسكين مرزوق ولا إيه؟ واضح إن الداخلية هاتلبسوا القضية كعادتها!

كنت أنظر إلى العمدة في حدة، ممسكًا بسلاحي، فينتفض كمن لدغه الثعبان، فيصيح ممسكًا برأسه التي تعلوها تلك الطاقية العجيبة قائلاً:

- يا إخوانا عيب كده! سيبوا الداخلية تشوف شغلها.

obeikan.com

مـرت دقائـق قليلـة، وكان الجميـع قـد تفـرق فيهـا بعيـدًا عـن المنـزل؛ ومـن ثـم أمـرت رجالـي بالتقـدم، ومشـينا حيـث مـكان العمـدة والغفـراء.

عـاد العمـدة إلـى ممارسـة هوايتـه الأثيـرة في النفـاق؛ إذ أنـه هـرع إلـى يدي في اهتمـام كطالبـي البركـة قائـلاً:

- يـا مرحـب يـا سـعادة البيـه، أرجـو ألا يصيبـك الضيـق مـن مسـلك أهالـي القريـة؛ فأنـت تعـرف حقيقـة مـا نعانيـه هـذه الأيـام.

أمسـكت بسـاعد العمـدة، وانتحيـت بـه جانبًـا بعيـدًا عـن رجالـي ورجالـه مـن الغفـراء، ثـم باردتـه قائـلاً:

- كيـف أحوالـك يـا عمـدة؟ أرجـو أن تكـون بخيـر، وأرجـو أن تكـون قـد انتهيـت ممـا طلبتـه منـك في المـرة السـابقة.

اجابني العمدة وهو يتصنع الهمس في أذني:

- اطمئن تمامًا؛ كل شيء كما أمرت وأكثر.

قاطعته قائلاً:

- قـل لـي يـا حـاج ضيـف، مـا هـي قصـة ذلـك المدعـو عبـد الجـواد، وأخـاه مـرزوق؟

وتابعت في تحاذق:

- هل بينهما عداوة على إرث أو أموال مثلاً؟ أو هل بينهما عداوة مع آخرين؟

قاطعني العمدة في انفعال مزيف قائلاً:

- قط، إنهم أغلب من الغلب ذاته، عبد الجواد وأخوه فلاحان فقيران، مُعْدَمان، لا يملكان سوى هذا البيت الذان ورثاه عن أبيهما، ولكن تقاسما الميراث فيما بينهما منذ خمس سنوات، ورحل مرزوق بعدما أخذ نصيبه، ثم بنى لنفسه بيتًا صغيرًا على بعد أمتار من هنا، أما عبد الجواد فقد ماتت زوجته الأولى منذ عشر سنوات تاركة من ورائها ذلك الصبي الوحيد: «سلامة».

قاطعته:

- تقصد القتيل؟

أجابني في ألم:

- كان صبي زي الفل.

واستطرد في تأثر:

- وبعد أن ماتت زوجته، تزوج عبد الجواد من فتاة صغيرة،

اسمها: جمالات، بنت حلوة وشاطرة، من أجل أن تربي له هذا الطفل اليتيم.

تنحنحت في تصنع قائلاً:

- أنت تعرف يا حضرة العمدة، أن في مضمار عملنا، قد نسأل بعض الأسئلة المحرجة.

التقط العمدة المغزى من كلماتي بكل دهاء صائحًا في تكتم هامس:

- لا، أبدًا أبدًا ياسعادة البيه، البنت سمعتها زي اللبن الحليب.

وعاد إلى نبرة التاثر:

- لقد كانت يتيمة في طفولتها، فكيف لها أن تقسو على طفل صغير؟! أو أن تخون الرجل الذي أنعم عليها.

وتابع في انفعال:

- الشهادة لله، جمالات أصيلة وبنت أصول.

قاطعته قائلاً:

- حسنا، هل يمكننا أن ندلف إلى الداخل؟ أريد أن أعاين غرفة الصبي، وأن أطرح بعض الأسئلة عليهما.

تجاوزنا مساحة خالية أمام المنزل تطل على ذلك المصرف الممتلئ بالقاذورات! حتى وصلنا إلى باب الدار، صفق العمدة في تأدب وهو يسحب مرزوق ناحيته صائحًا:

- يا ست جمالات، يا أهل الله.

تأخرت قليلاً في الرد، حتى ظهرت أمامنا امرأة شابة، ذات جمال باهر، لا تتعدى الرابعة والعشرون تقريبًا، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، ترتدي السواد، وقد ظهرت معالم البكاء والشحوب على وجهها، ذات صوت خفيض هامس، وملامح دقيقة، كانت تلف طرحة سوداء على شعرها الأملس، برزت في شجن قائلة وهي على وشك البكاء:

- إياكم أن تقولوا أنه قد مات!

همت بالصراخ، إلا أن العمدة قاطعها قائلاً:

- كفاية يا جمالات، البقاء لله.

والمرأة تصيح:

- يا سلامة، إنت فين يا حبيب قلبي؟ يا نن عيني من جوه.

قاطعها العمدة موبخًا هذه المرة، كما استنطق مرزوق بعدما وخزه في جنبه قائلاً:

- يجب أن تكون رجلاً في محل أخيك، لا يمكن أن تظل صامتًا هكذا!

أجابته دمعات تدحرجت على خده، ثم نطق أخيرًا وهو يضرب كفًا على كف، قائلاً:

- دا كان الحيلة، اللهم لا اعتراض يارب، ولا حول ولاقوة إلا بالله.

مرت دقائق أخرى في مطالعة هذه الميلودراما الإنسانية، حتى استطاع العمدة في النهاية أن يسيطر على انفعالهم، ومررنا إلى داخل الدار للمعاينة.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# رحلة البحث عن بداية

تقدمت خطوات إلى داخل المنزل، وكأنما تحولت عيناي إلى كاميرات ترصد كل جوانب الدار، طلبت ممن معي جميعًا أن يتوقفوا على عتبات الدار، وألا يتحرك أحدهم إلا بأوامر مني، ظلوا بالفعل من ورائي في امتثال؛ القوة، العمدة، وجمالات التي كانت مستمرة في النحيب بشكل مزعج، وعم الصبي الصامت.

كان المنزل متواضع جدًا من الداخل، فبعيدًا عن مساحته الجيدة، فإنه يبدو خاليًا من الأثاث بشكل لافت، وبصورة تدل على فقر أهل الدار؛ فما إن تمر من الباب الخشبي المتهالك، حتى تدلف إلى باحة واسعة، يتلاعب فيها بعض صغار الطيور، وربما تجد دجاجة أو أكثر هنا أو هناك، أما على اليمين قليلاً، توجد غرفتان لهما الأبواب الخشبية الضيقة ذاتها، واللون الباهت جدًا؛ أحدهما غرفة المسافرين كما يطلقون عليها، والأخرى غرفة للتخزين؛ بعض الحبوب، والأدوات، وكل ما يمكن تخزينه، ثم في الصدارة، توجد غرفة أخرى، علمت أنها كانت تخص والدهما قبل وفاته، وإلى جوار تلك الغرفة، سلم عريض، مبني من الطوب اللبن ذاته، يؤدي في دوران بسيط، إلى سطح المنزل، ومن خلفه توجد ردهة ضيقة، فيها على التوالي غرفتان متجاورتان؛ غرفة

obeikan.com

الصبي، ثم غرفة الأب والزوجة، وفي نهاية الردهة على البعد المطبخ والحمام.

هذا كل ما في الدار، وكما تعودت دائمًا في عملي؛ أن القاعدة الذهبية في المعاينة، تبدأ من أعلى نقطة، ثم تتدرج إلى أسفل؛ ولهذا كررت أوامري بألا يدلف أحد إلى داخل الدار، ثم توجهت إلى ذلك السلم الطيني، وقفزت على درجاته في نشاط حتى وصلت إلى أعلى، كان في مخيلتي، أن هذا السطح يعد معبرًا مناسبًا للوصول إلى المنزل، ربما عبر المجرم من منزل إلى منزل، أو من الخارج إلى أعلى، ثم إلى قلب الدار.

لكن توقعاتي تحطمت تمامًا عندما وصلت إلى نقطة السطح؛ فقد كان السطح مغطى بأكثر من طن من القش والحطام! ولكني جاهدت بالسير عليه لكي ألقي نظرة على المنازل المجاورة، وأيضًا اتضح لي أنه لا توجد منازل لصيقة بهذا الدار من أية جهة من الجهات.

عاودت الهبوط إلى أسفل بعدما تحطم ذلك الاحتمال، حتى وصلت إلى صحن الدار، أخذت أنظف مع علق بملابسي من غبار وقش بهدوء وحذر، ثم توقفت عند أسفل السلم، نظرت إلى المرأة الجميلة التي كانت تنتحب صائحًا في ضيق:

- أين غرفة الصبي؟

أشارت لي والدموع على خديها في صوت واهن، إلى الغرفة الأولى من جوار السلم، كان الباب خشبي، بلا مقبض حديدي أو نحاسي! مجرد دوبارة صغيرة ربطت في تجويف بداخله، لفتح وغلق الباب.

أزحت الباب بمنديل في يدي، ثم تقدمت إلى الداخل، كان في مواجهتي خزانة كبيرة متهالكة عند الحائط، إلى جوارها نافذة خشبية سدت بعض مسامها بقطع من القماش القديم، وفي ركن قصي في الداخل، كان يرقد سرير نحاسي كبير، لا يناسب حجم طفل في العاشرة من عمره تقريبا! اما باقي الحجرة كان خاليًا، إلا من بعض الأواني الحديدية، المكومة في ركن قريب من السرير.

تقدمت إلى الداخل، أخذت أتفحص النافذة، فتحت الخزانة بواسطة المنديل، كان بها بعض من ملابس الطفل؛ جلابيب قديمة، وزي مدرسي، وزوجين من الأحذية.

تفحصت السرير من أعلى وأسفل! تركت تلك الحجرة، ودلفت إلى حجرة الأب والزوجة كانت نظيفة، ومرتبة، بها أثاث جديد، وسرير حديدي ذو ستائر شفافة، وخزانة حديثة، ومرآة كبيرة.

تفقدت الخزانة، كان بها ما يخص الرجل وزوجته، وإن لاحظت العديد من الملابس النسائية التي تليق بشابة ذات اهتمام خاص بجمالها،عند المرآة كانت ترقد بعض من أدوات التبرج وزجاجات العطور الممتلئة!

خرجت إلى صحن الدار مجددًا، تفحصت ما تبقى من غرف؛ غرفة الجد كما هي، وكأنها تحولت إلى مقبرة أخرى تحمل ذكراه، الأتربة تعلو كل شيء! ثم المطبخ والحمام لاشيء فيهما يلفت النظر، حتى استقر بي المقام في غرفة المسافرين؛ غرفة متوسطة المساحة، بها آرائك خشبية تدور مع محيطها، وفي أوسطها طاولة خشبية متماسكة.

جلست هناك ثم ناديت على صلاح والعمدة وذلك الأمين، الذي أمليت عليه ملاحظاتي لكي يرفقها في محضر المعاينة، وأمرته أن يبدأ في كتابة الاستجواب، ثم أرسلت في استدعاء الزوجة، التي دلفت إلى الداخل في الشجن ذاته، والدموع تنهمر من مقلتيها ثم بادرتها:

- اسمك، وسنك، وعنوانك؟

- جمالات حسين أبو الفضل، خمسة وعشرون عامًا، قرية الأهالي، مركز ميت عمران، الفيوم.

- متي تزوجت المدعو/ عبد الجواد السيد مرزوق؟

- منذ خمس سنوات.

- هل بينكما أية خلافات زوجية؟ إساءة معاملة؟ مشاجرات؟

- أبدًا، أبدًا.

ثم تابعتْ في ذهول:

- عبد الجواد أحسن الناس، وسلامه ابنه، كان بمثابة الابن لي.

ثم انفجرت في البكاء.

سألتها في حدة:

وكيف لأم حنون مثلك أن تترك ابنها عرضة للضياع مثلما حدث؟!

بكيت في حرقة، في صورة مرتبكة ومرتعشة، صارخة:

- ااااه يا سلامة.

قاطعتها في ضيق:

- انظري، نحن الآن في تحقيق رسمي، ولا وقت عندي لمثل هذه الانفعالات، إن كنت حقًا تريدين القصاص لمن فعل ذلك، لا بد أن تتماسكي وتُجيبي على الأسئلة بكل دقة وهدوء.



obeikan.com

قال العمدة مقاطعًا:

- اسمعي كلام البيه يا جمالات.

ثم في ضيق:

- خلينا نخلص من اليوم ده.

عدت مسترسلاً:

- كيف اكتشفتِ اختفاء الطفل؟

- في المساء كنت أجلس أنا وسلامة، نلعب في صحن الدار ونطعم الطيور، ثم ارتكنت به عند السلم، وأخذت أقص عليه إحدى القصص المثيرة، حتى نام في منتصف القصة، فحملته إلى غرفته، وأغلقت أبواب الدار، ثم توجهت إلى المطبخ لكي أنتهي من بعض الأعباء، حتى شعرت برغبة في النوم أنا أيضًا، فدلفت إلى حجرتي، وغلبني النوم، ولكن في منتصف الليل تقريبًا، قمت لكي أروي ظمئي، شربت من القلل الموجودة على السلم، وذهبت لكي ألقي نظرة على سلامة، لكني لم أجده!

أخذت أبحث عنه كالمجنونة في كل أرجاء المنزل، لكني لم أجد له أثرًا يُذكر، فتملكني الفزع والخوف، وهرعت إلى بيت مرزوق، عم الصبي، وأخبرته بما حدث، وأخذنا نبحث عنه في محيط



obeikan.com

الدار، ولكن لم نجده؛ فجمع بعض الرجال لمعاونتنا في البحث عنه، وتركنا هو لكي يخبر المركز بما حدث، هذا كل ما حدث.

تنهدتُ في تدبر، وكنت قد أحسست بمعالم صداع قد بدأ يغزو عقلي، فتلك الأنفلوانزا مخادعة تمامًا، ساعة تشعرك بالراحة والشفاء، وساعة تعود لتضرب بكل قوة وعنف.

- أين زوجك الآن؟ وهل رحل منذ وقت بعيد؟

- زوجي يعمل في شرم الشيخ، وقد رحل بعد أجازة قصيرة منذ أسبوعين؟

- حسنًا، هل يعمل معه هناك أيا من سكان القرية؟

- لا أعرف، ربما.

قاطعنا صوت جلبة بالخارج، عندما سمعت أحد رجالي يصيح:

- ممنوع يا حاج، ممنوع!

أشرت للعمدة لكي يخرج ليرى ما يجري بالخارج.

قام العمدة في اهتمام، بينما غرق صلاح في تأمل تلك الجميلة الواقفة أمامنا، فرغم الرداء الواسع، والطرحة القاتمة،



obeikan.com

إلا أن فتنتها كانت ناطقة بصورة مغرية، أما الأمين فقد انهمك في تنسيق الصفحات، وانهمكت أنا أيضا في معالم ذلك الصداع المؤلم في رأسي، وفي حنايا تلك القضية، حتي عاد العمدة منشرحًا، يجري من ورائه، رجلاً فارع الطول،على مشارف الخمسين من عمره، يرتدي حلة فاخرة، ومن فوقها عباءة صوفية، ويحمل في يده عكازًا دقيق الصنعة، بديع المظهر.

كان رجلاً ذو بشرة خمرية، وعيون ضيقة، وأنف متوسط، ووجه مسحوب، وذقن بارزة، له شارب رفيع، حليق اللحية، وخفيف الشعر، ولكن عيناه كان فيهما لمعان غريب.

انتبهت إلى العمدة ومن معه، فقلت في صوت عال:

– ماذا حدث يا جناب العمدة؟ ومن هذا الذي بصحبتك؟

أجابني العمدة وهو يضحك في سذاجة:

– هذا فاضل بيه، من أشراف البلد، وأبو الواجب كله، وخيره على الكل.

قاطعته في حدة:

– حسنًا، وماعلاقته بالقضية؟

قاطعني الرجل وهو يزيح العمدة من أمامه قائلاً:

- معذرة يا سيادة المحقق، يبدو أنني قد جئت في وقت غير مناسب، ولكني جئت لأداء الواجب، والسؤال عما حدث، والوقوف إلى جوار أحد رجالي في مصيبته.

قاطعته في دهشة:

- أحد رجالك! ماذا تعني بهذه العبارة؟

أجابني قائلاً:

- إن عبد الجواد يعمل معي في المقاولات، وأظن أنه ليس من اللائق أن يكون في مثل هذه المصيبة، ولا أقف إلى جواره، وجوار أهله في غيابه!

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# القصاص

أنهيت التحقيق والمعاينة فيما يقارب العاشرة صباحًا، كان الأمر روتينيًا للغاية؛ ما بين أسئلة وأجوبة من قبل الزوجة، والعم، حتى ذلك الغريب الذي داهمنا المدعو/فاضل الحسيني، كان حضوره باهتًا، ولكن ظهوره هو الذي كان علامة بارزة؛ فلم يمكث كثيرًا، وتحجج بأن ظهوره كان بداعي مشاطرة العم والأب الغائب في أحزانهما، كما أنه أصرّ قبل أن يمضي، على أن يدس بعضًا من المال في جيب العم، الذي تقبل الأمر بصعوبة بالغة.

مضيت في التحقيق إلى النهاية، وكانت إجابات العم المهتزة بفعل ما اعتراه من صدمة! تتوافق مع حديث الزوجة، أغلقت الدفاتر، وأمرت صلاح ورجاله أن يمضوا بهما إلى سراي النيابة، على أن يتم التحفظ على الدار تحت الحراسة؛ لحين ورود رجال رفع البصمات، لعلنا نعثر على آثار غريبة، لوافد غريب عن أهل الدار.

مضى الجميع في موكب جنائزي الملامح إلى سراي النيابة، بينما استبقيت العمدة معي، وتحركت به عبر سيارتي نحو دوار العمدة، وكالعادة كانت جلستنا في تلك المضيفة أو (البرندة) كما يحلو له أن يطلق عليها.



obeikan.com

وفي خضم التحيات والمداهنة التي أسرف فيها العمدة هذه المرة، بعدما رأى في الواقع العملي، ما لديّ من سلطة وسطوة، جلست على الأريكة أطالع تلك الأغصان المهتزة في أشجار النخيل التي تحيط بمنزله، وكانت الأفكار تتراقص في رأسي مثلها تمامًا.

كنت أشعر بأنني في موضع القصاص في قلب صحراء ممتدة، صفحتها الصفراء بلا حدود، صفحة ملساء، تحركها الرياح بين الحين والآخر كما تشاء، تزيل آثارًا مضت، وتزيف آثارًا لم تحدث، وفي قلب هذه اللوحة المتحركة، كان عليّ أن أميز بين ما هو حقيقي، وما هو خيال، كان من الواجب أن أميز بين الألوان الطبيعية، والألوان الممزوجة بلمحة من الوهم والسراب.

كان العمدة يرتشف الشاي أمامي في صمت، بعدما أفرغ ما في جوفه من مراسيم وتحيات، كان يعلم أنني لم أنفرد به، أو أطلب تواجده، من أجل أن نجلس جلسة ودية، كما يحدث بين الأصدقاء.

وفي الحقيقة، كنت أعرف أنه رجل ذكي، بل إنه داهية، رغم تلك السذاجة التي يحاول أن يصطنعها معي، كانت حدقاته تتراقص خلف زجاج الكوب، وهو ينظر إليّ خِفية، في انتظار كلماتي الأولى.

ولم أشأ أن أجعله يعاني كثيرًا في تلك المعضلة، فبادرته قائلاً وأنا أضع ساقًا على ساق:

- حسنًا ياعمدة، هلاّ أطلعتني عما هو جديد لديك؟

نظر إليّ في اهتمام، في حين عكستْ ملامحه قدرًا من الدهشة قائلاً:

- عن أي شيء تتحدث يا جناب الباشا؟!

قهقهت في انشراح قائلاً:

- من المؤكد أنني لا أسألك عن أحوالك العاطفية يا جناب العمدة!

وتابعت في جدية:

- إنني أسألك عن تلك القائمة التي أمرتك أن تعدها لحين عودتي مرة أخرى.

واستطردت مباعدًا ذراعي في زهو:

- وها أنا قد عدت من جديد.

أخذ العمدة يعض عل شفتيه في تدبر، مُصدرًا بعض الأصوات المكتومة ثم قال:

- تصور يا فندم، إنني اكتشفت أمرًا غريبًا للغاية! إنه رغم اتساع قريتنا إلى حد جيد، وجودها بالقرب من مدينة ٦ أكتوبر، وقربها من الطريق.

ثم في انفعال مصطنع:

- إلا أنه بعد الفحص والتمحيص؛ لم أجد قدرًا كبيرًا من الغرباء كما كنت أتصور، فعددهم بعد الحصر ربما لا يتجاوز اثنين أو أكثر قليلاً.

ضربت كلتا كفي في ضيق قائلاً:

- إنني شخص دقيق جدًا، ولا أحب كلمة ربما، أو احتمال؛ إنني أريد حقائق واضحة وكاملة، لقد أكدت عليك قبل أن أرحل، أنني أريد قائمة بالأسماء، وبتواريخ ترددهم على البلدة، هل هذا حدث أم لا؟!

انتفض العمدة في قلق قائلاً:

- حدث بالفعل.

ثم في توسل خفيض:

- ولقد قمنا بالحصر، وإعداد القائمة، وسلمتها للسيد صلاح منذ يومين.



obeikan.com

وتابع ﷽ تبسم:

- فكما قلت لك يا سيدي، لقد اكتشفت أنهم ليسوا بالعدد الكبير كما كنت أتصور.

قاطعته بعدما أشعلت لفافة من التبغ، ورحت أنفث دخانها في سعال؛ بعدما عادت ذكرى تلك الحُمّى إلى شعاب صدري:

- حسنًا، وما هي قصة ذلك الرجل الغريب؛ الذي ظهر أمامنا أثناء التحقيقات؟

واستطردت محذرًا:

- ولعلمك إنني لم أرغب في ضبطه واستجوابه، وإن كنت سأفعل، ولكنني لا أقوم بشيء إلا بعد دراسة كاملة.

ثم في حيرة:

- ولقد بدا لي من هيئته للوهلة الأولى؛ أنه أحد أعضاء البرلمان عن قريتكم أو زمامكم؛ البدلة، والعباءة الصوفية، والعكاز.

ضحك العمدة في خبث قائلاً:

- إنه ليس كذلك بالضبط، ولكنه جليس أهل السلطة بالفعل، وله معارف كثيرة.

opeikan.com

وتابع وهو يهز رأسه بصورة هازئة:

- كما أن له رصيد كبير في البنوك، إنه من أغنياء القرية.

عاد للتصنع من جديد:

- ولكن الشهادة لله، رجل خيره على البلد كلها، يساهم في تشغيل أبنائها في شركات المقاولات التي يملكها، وساعد بعضهم في السفر إلى الخارج، وله حضور في كل مصيبة تلم بأبناء القرية.

قاطعته في سخرية:

- تقصد أنه يساهم فيها أيضًا؟!

تدارك العمدة في فزع:

- لا، أبدًا أبدًا، أقصد أنه لا يتأخر عن المساعدة المادية لمن أصابه مكروه، أو ألّمت به ضائقة ما.

قلت له:

- تقصد أنه يجنح لفعل الخيرات طامعًا في الأجر والثواب من الله؟

أغمض العمدة إحدى عينيه لا إراديًا، وكأنما يستدعي المصطلح المناسب قائلاً:

- ليس بالضبط يا جناب الباشا، أظن يعوض نقصًا ما!

قاطعته في دهشة:

- تقصد أنه يعاني من عقدة للنقص؟!

أجابني العمدة في حرص على ألفاظه:

- ليس بالضبط، ولكنه في شبابه كان مزارعًا أجيرًا هو الآخر، وليس ذو عزوة أو عائلة كبيرة، وكان في حالة من الشقاء والفقر المدقع، ولكن منذ عشرين عامًا، وبقدرة الخالق عز وجل، وجدناه من الأثرياء، بين يوم وليلة، وأصبح صاحب شركات، وأطيان، وانتقل للإقامة في القاهرة، كيف حدث هذا؟! لا نعرف، بعضهم يقول أنه قد ورث، وآخرين يقولون أنه وجد كنزًا، وآخرين يجزمون أنه كان على اتصال بإحدى بنات الجن، مخاوي يعني، ولكن كل هذا الكلام، لا دليل عليه من أي نوع.

قاطعته وقد بدأ الشك يساورني:

- إذن هو الآن من سكان القاهرة، أي أنه يعد من الغرباء، فلماذا يتواجد الآن في القرية؟

أجابني العمدة:

- لا يا فندم، إنه لم يقطع علاقته بالقرية منذ ذلك الزمن، يزور القرية دائمًا، كل أسبوعين أو شهر، وكما قلت لك، إنه متواجد في كل مناسبة، يقوم بالواجب على حد قوله.

يتصنع مرة أخرى وهو يهز رأسه:

- والشهادة لله، إنه رجل من أصحاب الواجب.

مقاطعًا إياه في فضول:

- وماذا يفعل بخلاف الواجب في قريتكم؟!

أجابني العمدة:

- إنه كما ذكرت لك، يملك العديد من الأراضي هنا، ويحرص على البيع والشراء باستمرار، رغم عدم حاجته لأموال الزراعة! وفي أحيان كثيرة يؤجرها لبعض المزارعين بثمن بخس، أو ربما بدون مقابل.

قاطعته من جديد:

- وما هو تفسيرك لمثل هذا السلوك؟

أجابني وهو يتصنع الحكمة قائلاً:

- كما قلت لك، إما أنه يعوض النقص الذي كان، أو يحاول دائمًا أن يكون محبوبًا وذو شعبية بين الفلاحين، أما دون ذلك، فله مسكن فخم على مشارف القرية من الجهة الأخرى،

وتابع وشهوة الحسد في عينيه:



obeikan.com

- إنما فيلا آخر عظمة، يقابل فيها بعض من معارفه من خارج القرية، أو بعض الأفاضل من أهل القرية.

بادرته ساخرًا:

- وأنت طبعًا أول الأفاضل في القرية.

ابتسم العمدة في سرور قائلاً:

- هذا من فضل ربي.

أخذت أستجوب العمدة في هذا الحديث الودي حتى الظهيرة، حتى بدأت أشعر بوطأة الإجهاد؛ فقد كنت بحاجة ملحة للنوم، فآثرت أن أتركه بعد محاولات مضنية في الهروب من دعوته الملحة أن أبقى معه لتناول الغداء، وهو يصيح كعادته:

- ما يصحش يا سعادة البيه، فين الأكل يا ولاد؟ فين الأكل يا بنات؟

وفي الحقيقة في كلتا المرتين التي جئت فيهما إلى دواره، لم أرَ أثرًا لا لفتيات، أو أولاد، ولكني شكرته في النهاية، وتوجهت إلى السيارة الراقدة في سكون تحت ظل الأشجار المترنحة، ركبتها في تثاقل وإجهاد، وانطلقت بها صوب القسم، بغية التنسيق مع عصام على ما سأفعله في هذه القضية في الأيام المقبلة.

●●●



obeikan.com

obeikan.com

# القائمة الرمادية

كثيرًا ما نسمع في عالمنا عن القوائم السوداء، ربما في مجال التجارة، أو النخبة، أو حتى المبدعين؛ تلك القوائم التي يُصَنَف فيها بعضهم على أنهم شياطين الإنس، وكثيرًا ما تكون تلك القوائم معلنة، أو متداولة، أو مطبوعة.

كذلك هنالك مجال للقوائم البيضاء، ولكنها من نمط القوائم الخفية، لا تجدها شائعة إلى حد كبير، وربما تكون غير دقيقة بالمرة؛ فهؤلاء الساكنون في تلك القوائم البيضاء على ألسنة البشر، تجد الناس يرفعونهم إلى مقام الملائكة والأولياء.

ولكني لم أقتنع في يوم من الأيام بأي صنف من هذه القوائم؛ فهي دليل دامغ على التطرف في العاطفة، والميل نحو الهوى، أما من ينتهج الموضوعية والتدقيق في حياته، سيدرك الحقيقة الصادمة، إننا جميعًا نسكن في طوابق القوائم الرمادية، نعيش بين سطورها في كل لحظة وحين؛ فالإنسان ليس بملاك ولا شيطان، هو خليط من هذا وذاك، أو قريب من هذا وذاك، ولكنه في النهاية بشر يخطئ ويصيب، يجنح ويتوب، ليس طائعًا صاغرًا بلا اختيار، أو قائم على ارتكاب الشرور إلى يوم موعود، فتلك القائمة الرمادية، هي اختبار البشر، واختياراتهم أيضًا.

كانت الساعة الثانية مساءً، وأنا أتخطى بأقدامي عتبات القسم، دلفت إلى الداخل ثم أرسلت التحية لطاقم الرجال في الطابق السفلي، وتوجهت عبر الدرج إلى أعلى، نحو مكتب معاون المباحث.

طرقت الباب الموصد ثم دلفت إلى الداخل، فألفيت عصام جالسًا على مكتبه في هيئة غريبة المظهر، يرتدي ملابسه التحتية في نصفه الأعلى! ويبدو على وجهه آثار النعاس، ممسكًا في إحدى يديه بلفافة مشتعلة، وفي اليد الأخرى سماعة الهاتف، وهو يردد في آلية مضحكة بعض العبارات المكررة:

- اه، إمممم، حاضر.

جلست أتأمله والابتسامة تعلو ملامح وجهي، وأنا أطالعه كتلميذ خائب، يعاني آثار التوبيخ من طرف مجهول! ولكن الأمر لم يكن بحاجة إلى مزيد من الذكاء لمعرفة ذلك الطرف المجهول؛ فمن المؤكد أنه المصدر الدائم للفزع، ورمز السلطة في كل زمان، قاطعني بعدما أغلق السماعة في تأفف صائحًا:

- اللعنة، لا أعرف أين كان عقلي حينما تزوجت؟!

وتابع في تشنج:

- أتظنها نوع من الماسوخية تسري في عروق الرجال؟

قاطعته قائلاً:

- لا عجب يا صديقي أن الفراعنة كانوا يلقون النساء في مياه النيل في الأزمنة الغابرة!

واستطردت ضاحكًا:

- أظنه من المناسب أن يُطْلَق عليهم «الحكماء المصريون» وليس القدماء، بل إنه في العديد من الحضارات، وبعض الديانات القديمة كانت تتم مراسيم الزواج في مكان مقدس، يُدعَى المذبح! أليس الاسم مناسبًا تمامًا لما يحدث بعد ذلك؟!

قاطعني في حماس وهو يهز يديه في انفعال:

- نعم يا صديقي، مرحبًا بك في عالم السلخانة!

واسترسل متفلسفًا:

- لقد تحولنا إلى شرذمة من الخراف الضالة؛ ولهذا أصبحتْ الذئاب تنهش في لحومنا بلا رحمة أو هوادة، لقد خدمت هنا منذ أكثر من خمس سنوات، لم أسمع عن أي ذئب من الذئاب، لا بد أن هنالك تغيير ما في الصفات الوراثية للبشر!

قاطعته في جدية هذه المرة:

- حسنًا، دعك من هذا الحديث الكاذب؛ فكل المتزوجين يمارسون طقوس الشكوى، كلما سنحت الفرصة، ولكن الحقيقة إننا مسوخ بشرية، لا يستطيع احتمالها سوى النساء، وتلك هي ضريبة احتمالنا: الإذلال، حتى تظل دائمًا مسخًا مطيعًا صاغرًا، وأن تحسن التصرف في مجمل الأوقات.

صاح مقهقهًا:

- حسنًا أيها المسخ العازب، ماذا فعلت مع الذئاب الحقيقية التي تقتنص الأطفال كما الخراف في محيط دائرتنا؟

صمتت قليلاً في تأمل، حتى أخذ يشيح بيده من أمام عيني، حتى بادرته قائلاً:

- إن الموضوع محير جدًا يا صديقي، وهنالك ملاحظات جديدة على هيئة وملامح الجثة الأخيرة، ولم أحدد بعد؛ هل طوّر المجرم أو الذئب من أساليبه؟ وهذا إن حدث سيكون أمرًا كارثيًا حقًا، أم أن هنالك شيء آخر؟

نظر إليّ عصام في تعجب قائلاً:

- لا أعرف سر إصرارك على فكرة وجود شبهة جنائية في



obeikan.com

القضية! فهذا أمر غريب عن بيئتنا تمامًا؛ أنا وأنت من رجال الشرطة والداخلية، ولم يسجل من قبل على حسب علمي وعلمك، حالة واحدة لقاتل متسلسل، إن هذا النمط موجود في الغرب والولايات المتحدة بشكل أوسع كما تعرف.

ثم في دهشة:

- ولكن هنا في مصر، والفيوم! هذا في ظني نوع من العبث.

قاطعته في انفعال:

- ليس من المطلوب أن يكون قاتلاً متسلسلاً، بل ليس شرطًا أن يكون مجرمًا واحدًا؛ قد تكون عصابة بأكملها، تستغل هؤلاء الأطفال؛ جسديًا، أو جنسيًا، أو عقائديًا، كل شيء جائز.

صاح في وجهي وهو يلتقط قميصه ثم يلقيه على كتفه، ملوحًا به أولاً، قائلاً:

- لاااا، لقد أفسدت القراءة ملامح عقلك تمامًا، إن الحياة أبسط من ذلك بكثير.

قاطعته في سرعة:

- معك تمامًا، ولكن لا تنسَ أن الحياة يصنعها البشر، والبشر أعقد مما تتخيل بكثير!

هب عصام واقفًا وهو يقول:

- ولأجل هذا يا صديقي الحبيب، على أن أسرع في الاغتسال؛ حتى ألحق زوجتي قبل حلول المساء، وإلاّ قد تضاف جريمة أخرى إلى تلك السلسة التي تبحث عن حلقاتها.

بادلته الضحك، ثم استوقفته قبل أن يدلف للغرفة الأخرى قائلاً:

- أين صلاح؟!

أجابني:

- صلاح خرج في حملة إزالات مع الجهات التنفيذية.

وتابع كأنما تذكر شيئا ما:

- آه، لكنه ترك لك هذه الأوراق.

فتح الدرج والتقط منها بعض الوريقات، ناولني إياها باسمًا وهو يقول:

- أتمنى لك إقامة سعيدة مع المجرمين والمشبوهين.

استوقفته مرة أخرى قبل أن يدلف إلى الحجرة صائحًا:

- إلى أين أنت ذاهب؟ تَعقّل أيها المجنون!



obeikan.com

نظر إليّ في سماجة قائلاً:

- إذا ما كنت مجنونًا حقًا؛ لاصطحبتك معي أثناء الاستحمام.

سحب القميص من على كتفه في ضيق قائلاً:

- اتركني.

ثم نظر في ساعته في قلق وهو يقول:

- لقد تأخرت، ولا أريد أن أكون ضيفًا على المذبح المقدس في المساء.

انتظرت حتى رحل عصام، ثم استدعيت أحد الجنود وأمرته أن يعد لي إناءً ممتلئ من الشاي، ثم توجهت إلى الغرفة الداخلية، التي ترقد فيها تلك الأريكة اللعينة، وذلك التلفاز المتهالك.

خلعت بعض ملابسي ثم تمددت على تلك الأريكة؛ في محاولة للتخلص من عبء ذلك الإرهاق المر، فاليوم مناسب جدًا للعمل والتفكير؛ عصام رحل بحثًا عن ليلة زوجية سعيدة، ولن يعود إلاّ في الصباح، وصلاح أمامه ساعات كثيرة حتى يظهر على السطح.

إنني وحيد بشكل كبير، ووحيد أيضًا بشكل قد يساعدني على استرجاع ما تم في تلك الليلة الدامية، دلف الجندي إلى الداخل بعد الطرقات والتحية، التقطت منه الإناء، وأخبرته ألاّ

يدع أحدًا يزعجني؛ فسوف أخلد للنوم قليلاً، وأريده أن يوقظني في الساعة العاشرة مساءً.

غادر الجندي، ومن ثم اعتدلت، وملأت قدحًا بالشاي الساخن، كان الجو ما زال باردًا، رغم انتصاف النهار، أشعلت لفافة، والتقطت تلك القائمة، وكان الخط شنيعًا بصورة كبيرة، ربما تفوق قدرتي على حل المشاكل والجرائم، ولكن بعد جهاد مرير في فك رموز تلك اللغة، تبين لي شخوص القائمة وهم: المهندس/ إبراهيم فوزي، من أهل القرية ولكنه قاهري المولد، وقضى جزءًا كبيرًا من عمره خارج القرية، عمره خمسة وأربعين عامًا، ظهر فجأة في القرية منذ أربع سنوات، يعيش في منزل أبويه بعد أن قام بتجديده، وينفق من ريع أرض ورثها عنهم أيضًا، شخص غامض، يميل للعزلة وتجنب البشر، وجاري استقصاء معلومات أكبر عنه.

الدكتور/ مراد حلمي، طبيب الوحدة الصحية، من إحدى قرى الدلتا، محافظة البحيرة، عمره ثمانية وعشرين عامًا، يعمل في القرية منذ ثلاث سنوات ونصف تقريبًا، مقيم بشكل دائم في القرية، ويفضل المكوث في القرية حتى في أيام أجازته، سمعته جيدة، متفوق دراسيًا، وهو المشرف على وحدة التبرع بالدم التي قدمتها منظمة اليونسيف كهدية للقرية بعد ملاحظة ارتفاع نسبة

الأطفال المصابين بأنيميا البحر المتوسط، لكنه دائم الشكوى من الواقع المرير، وضعف الإمكانات العامة والخاصة.

السيدة/ إيمان أحمد العامري، قاهرية، خريجة الجامعة الأمريكية، قسم إدارة الأعمال، حاصلة على دبلومات في الدراسات التربوية، تعمل مدرسة في القرية منذ أربعة أعوام، تقيم في مدينة ٦ أكتوبر، عمرها ثلاث وثلاثين عامًا، مطلقة، شخصية حسنة السمعة جدًا، هادئة، متزنة، تشارك في العديد من الأنشطة والخدمات الاجتماعية لأهالي القرية.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# بيدوفيليا

استغرقني النوم بينما كنت غارقًا في التفكير في معالم هذه القائمة، كانت شخصيات تبدو جيدة، ولكن ما هي أسبابها ودوافعها في المكوث في تلك البقعة النائية؟! هل هو حب العمل؟ أم حب البشر؟ أم المبادئ؟ أم خدمة الإنسانية؟

مرت كل تلك الاحتمالات في عقلي كالبرق، حتى غرقت في النوم في نهاية الأمر، كنت متعبًا من أثر الحُمّى التي ألّمت بي في اليوم الماضي.

ظللت نائمًا حتى الساعة العاشرة مساءً، حتى أيقظني الجندي كما أمرته قبل نومي، اغتسلت سريعًا، وهندمت ملابسي التي أصابها الاتساخ والتدهور من أثر التنقل بين أكثر من مكان؛ مسرح الجريمة، ومنزل عبد الجواد، ودوار العمدة...

كنت أشعر أنني بحاجة إلى حمام ساخن، ولكن كان هذا حلم بعيد المنال في تلك البقعة النائية، تذكرت أيضًا أنني بحاجة إلى ملابس إضافية، ولم يكن أمامي سوى أن أتجهز للعودة إلى منزلي في رحلة خاطفة؛ أنجز فيها تلك المهام الملحة، ثم أعود من أجل بداية أظنها ستكون متعسرة في حل تلك القضية؛ فكل

obeikan.com

الاحتمالات متاحة، والصورة تنطق بالعديد من المشتبه فيهم، ولا أكون مبالغًا في القول: أنني بدأت أشك في القرية بأكملها، من صغيرها إلى كبيرها!

ناديت على الجندي، بعدما استقر بي المقام على مكتب عصام، حيث كان الشاي الساخن ينفث بخاره في احتراق، سألت الجندي عن المُلازم صلاح، إلاّ أنه أخبرني أنه لم يعد من مأموريته حتى الآن، أما باقي الضباط فمتواجدون إن كنت أرغب في طلب أحدهم، شكرته على عرضه السخي، ثم أمرته بالانصراف.

أشعلت لفافة من التبغ، ثم أرخيت رأسي إلى الوراء على مسند ذلك المقعد الجلدي، وكأنني أحاول استعادة ملامح التفكير السابق قبل أن أغط في النوم.

اعتدلت فجأة بعدما التقطت ذلك الخيط التائه عن عقلي، نعم، لقد كنت أفكر في حالة اشتهاء الأطفال، إن هذا احتمال قوي للغاية، ولكن ما يثبته أو ينفيه يعتمد على براعة الطبيب الشرعي في الكشف عن مصير تلك الأطفال قبل موتها؛ هل تعرضوا فعلاً إلى اعتداء جنسي أم لا؟ وهل مرض اشتهاء الأطفال أو على حد علمي، ما يسمي بالبيدوفيليا، يتطلب من المريض أن يقوم بإتصال جنسي كامل، أم أنه قد يتخذ أشكالاً أخرى؟ وهل هو

obeikan.com

مـرض خـاص بالرجـال، أم أنـه يصيـب الرجـال والنسـاء معًـا؟ ومـا هـي ملامـح تلـك المرضـى؛ أعـراض المـرض، وطبيعـة الشـخصية؟

كانـت تلـك هـي الأسـئلة التـي تـدور في عقلـي وذهنـي قبـل أن يسـقطني سـلطان النـوم أرضًـا.

نظـرت في سـاعتي فوجدتهـا تقتـرب مـن العاشـرة والنصـف، أخرجـت مـن حافظتـي قائمـة الأرقـام، وظللـت أبحـث فيهـا عـن ذلـك الاسـم المميـز دكتور/أحمـد الشـبراوي، حتـى وجـدت الرقـم بالفعـل، أمسـكت بالسـماعة، ثـم أدرت القـرص لاهثًـا خلـف تلـك المكالمـة، أتانـي صـوت الطبيـب في عيادتـه، بادرتـه قائـلاً:

- مرحبا بأستاذنا العظيم.

أجابني في سرور:

- أنور، ولدي العزيز كيف حالك؟ ومتى عدت من الخارج؟

قاطعته في انشراح:

- هـذه الأسـئلة لا يمكـن الإجابـة عنهـا هاتفيًـا، إنهـا تسـتحق فنجانًـا مـن القهـوة المنعشـة؛ فهـل أجـد لديـك الوقـت الآن؟

أجابني الطبيب في تهلل:

- بالطبع، أنت تعلم أنني أسهر في العيادة إلى وقت متأخر، وسأكون في انتظارك في أي وقت.

قاطعته قائلاً:

- أمامي ساعة ونصف، هل هذا موعد جيد؟

قاطعني في تحاذق:

- نعم، جيد إذا ما كانت القضية تستحق.

أجبته ضاحكًا:

- إنها تستحق بشكل لا يوصف!

بادرني قائلاً:

- وأنا في انتظارك.

أغلقت الهاتف بعد السلام، ثم انطلقت إلى داخل الغرفة، التقطت معطفي ومجمل أشيائي، وهرولت إلى خارج القسم، ركبت السيارة، وانطلقت ناحية القاهرة.

كانت عيادة الطبيب النفسي، مجاورة لمنزلي، وكان هذا الرجل: الدكتور/ الشبراوي، أستاذ وأب بكل ما في الكلمة من معاني، إنه علّم أعلام الطب النفسي في البلاد.



obeikan.com

تعرفت عليه أثناء دراستي في كلية الشرطة، حيث كان يلقي علينا محاضرات في علوم الجريمة، وكما تأثرت به، لاحظ هو أيضًا شغفي بتلك العلوم النفسية، وتنبأ لي أنني سأكون من البارعين في هذا المضمار، ومنذ ذلك الحين وعلاقتنا لم تنقطع أبدًا، ربما تُفرقّنا بعض الانشغالات، ولكنه برغم الفارق العمري بيننا، كان بمثابة الصديق، الذي قد أشكو له في أدق تفاصيل حياتي، وهو أيضًا كان يتخذني في مقام الابن بكل تأكيد.

كان الطريق إلى القاهرة موحشًا هذه المرة، لا أعرف لماذا أصابني ذلك الشعور بالانقباض؛ ربما باغتني هذا الشعور تحديدًا عندما تبلورت تلك الفكرة الشيطانية في عقلي، يا إلهي هل هذا ممكن؟ أن يكون المجرم مجرد مهووس بالأطفال! ما إن ينتهي من متعته، وإبعاد نزوته حتى يلقيهم للذئاب؟!

ولكن يظل السؤال، كيف يستدرجهم إلى خارج منازلهم في جنح الظلام؟ إنه أيضًا احتمال بعيد ولكنه جائز، كما أن كل الاحتمالات الأخرى جائزة.

كنت منطلقًا بسرعة كبرى، جعلتني أصل مشارف القاهرة في وقت قياسي، لكن الغريب في الأمر: أنني لاحظت في الطريق المعاكس، سيارة تشبه سيارة صلاح، بل إنني شعرت للوهلة الأولى



obeikan.com

أنه هو ذلك الشاب الراقد خلف مقود السيارة، هل هو حقًا؟! وماذا كان يفعل في القاهرة؟!

شعرت أنني مذبذب للغاية، وأن تلك الحُمّى ألقت ببذرة الهلاوس في رأسي، والتي ظلت تترنح في طرقات عقلي حتى وصلت إلى منزل الدكتور الشبراوي.

استقبلني في حفاوة بالغة على مشارف تلك الفيلا الرائعة، التي ترقد فيها عيادته ومسكنه أيضًا، حيث يظل في استقبال المرضى حتى الحادية عشرة، ثم يجلس لساعات يسمع الموسيقى الكلاسيكية، وقراءة الكتب من مختلف العلوم، ثم في النهاية يعود إلى القسم الآخر من الفيلا حيث مسكنه لكي ينام ساعات قليلة حتى الفجر، ثم يعاود اليقظة في نشاط.

كان بالنسبة لي عبقريًا، أو يشبههم إلى حد بعيد، حتى في وحدته بعدما توفيت زوجته، وسافرت ابنته مع زوجها إلى الخارج، ظل وحيداً في منزله، رافضًا أن يترك مصر، ويعمل على خدمته مربية عجوز، وسائق، وطباخ.

دعاني إلى تلك الحجرة التي توجد جهة اليمين في حديقة الفيلا، بعيدة عن بقية مبانيها، والتي حولها الطبيب إلى عيادة خاصة، كان منشرحًا، بشوشًا كعادته، لقد تجاوز الستين بقليل،

obeikan.com

ولكنه كان متقد الذهن، وفي غاية الحيوية، ملامحه غربية إلى حد بعيد؛ شعره الفضي الناعم، وعيونه الزرقاء، وبشرته البيضاء المشربة بحمرة، وطوله المتوسط، وجسمه الرشيق، حتى مسلكه في الملبس؛ الحذاء الطبي الخفيف، والملابس المريحة، وذلك الغليون المغلق في فمه على الدوام.

وصلنا أخيرًا إلى عيادته، مررنا من الباحة الخارجية إلى حجرة المكتب؛ بها مكتب عريض، ومكتبة توجد في خلفية المشهد، وشيزلونج راقد في نهاية الحجرة، ومصابيح، وجهاز التسجيل، وفوتيه بسيط، وأكثر من مقعد مريح.

جلس على مكتبه، بينما جلست أمامه، كان يبتسم في مرح، وكانت زيارتي قد كسرت مرارة وحدته، صاح كما الأطفال:

- مرحى يا أنور، لقد اشتقت إليك كثيرًا، واشتقت إلى قصصك بشكل أكبر، كيف حالك؟ وتهانيّ الحارة على الدرجة العلمية التي أحرزتها.

واستطرد في حماس وهو يمسك الغليون بين أنامله:

- إن نظرتي فيك لم تخب أبدًا.

قاطعت حماسه المنهمر قائلاً:

- الفضل لله، ولك من بعده يا دكتور؛ فأنت من القلائل الذين أثروا في حياتي كلها بكل إيجابية، وما زال أمامك المزيد لتؤثر به أيضًا.

رد الطبيب ضاحكًا:

- حسنًا.

ثم في حذاقة:

- ما وراءك؟

تنهدت في حرارة قائلاً:

قضية غامضة، شائكة، محيرة؛ أظن أن الجاني فيها مريض بالبيدوفيليا، وقد جئت اليوم؛ لكي أستفيد من خبرتك العريضة في هذا المجال، بأن تشرح لي أدق التفاصيل عن هذا المرض، وهل يمكن أن يتحول المريض بهذا المرض إلى قاتل؟ والأصعب هل يمكن أن يكون قاتلاً متسلسلاً؟

نظر إليّ في تركيز قائلاً:

- وماذا تريد أن تعرف تحديداً؟



obeikan.com

قاطعته ضاحكًا:

- يبدو أنك ترغب في النوم مبكرًا يا دكتور.

بادلني الضحك قائلاً:

- على العكس؛ أنا معك حتى الصباح.

ضغط على زر أمامه لاستدعاء أحد الخدم وهو يقول:

- نطلب القهوة أولاً، وأستعد للمحاضرة.

التقطت ورقة وقلمًا من على مكتبه قائلاً:

- بعد إذنك طبعًا، سأدون كل ما أسمع، وأهم ما أريد أن أسمعه: هي السمات الشخصية لهؤلاء المرضى.

●●●



obeikan.com

obeikan.com

# العودة إلى المجهول

انتهت الأمسية مع صديقي الطبيب ووالدي الروحي، إلى لا شيء؛ فقد أعادني إلى نقطة الصفر من جديد؛ فقراءة النتيجة على ترمومتر الشكوك، هبطت مجدّدًا إلى الدرجة صفر، فقد غير حديثه من حساباتي كثيرًا، أو ربما جعلني أقيم حسابات أخرى.

تذكرت وأنا في طريق عودتي إلى المنزل في وسط السكون، والظلام المتقطع بفعل تلك الأعمدة البائسة، التي تخترق بأنوارها البائسة رداء الظلام الأسود بثقوب صفراء قبيحة، تذكرت مقولة لأحد أصدقائي القدامى، حين كنت أسأله أيضًا عن المرض النفسي، فقال لي بكل ثقة: إذا أردت أن تعرف المرض النفسي؛ ما هو وماهي ملامحه؟ انظر حولك فقط! كان ردًا عجيبًا، ولكنه يحمل قدرًا من الصدق؛ فمن منا لا يحمل سمات الجنون والاضطراب؟! من منا لا يملك عادة أو لزمة؟! ذكرى أو عقدة؟! من منا لا يحمل عبء الطفولة برموزها وشخوصها على كتفه؟! كثيرًا ما كانت الطفولة ملجأ جيدًا للهروب من الهموم، ولكنها في البعد الآخر تعد بوابة لصناعة وتصدير الهموم في أوقات لاحقة.

دلفت إلى حجرة مكتبي، وأنا أعاني من موجات التعب التي

باتت تتصاعد في هذا المساء، لقد تغيرت الخطة تمامًا، لم أجد في نفسي القوة ولا الحماسة للعودة في المساء ذاته إلى تلك البقعة النائية؛ كنت بحاجة إلى حمام دافئ ينعش ما تبقى من حياة في أوصالي المتهالكة؛ لذلك وضعت حقيبتي الجلدية الصغيرة التي كانت تحمل صورًا لجثة القتيل، ودفتر الملاحظات داخل حجرة المكتب، ثم صعدت في تثاقل إلى الطابق العلوي، حيث التقطت بعضًا من الملابس المريحة، وتوجهت إلى الحمام، حيث ملأت ذلك البانيو بالماء الساخن عن أخره.

كان الأمر أشبه بطقس سحري، وأنا جالس أتابع ارتفاع الماء في ذلك الحوض الزلق، ونوبات البخار تتصاعد إلى أعلى، وكأنما تلك المياه تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتفارقها روح كانت في طياتها، هل هذه هي طبيعة ما يحدث؟ وهل الموت هو مجرد انتقال أو تحول في حالة المادة؟! لا أعرف، ولا أعرف لماذا لم يفكر الفيزيائيون في هذه الفرضية من قبل؟! بل ولماذا ينكرونها على الدوام؟! رغم أن لكل المواد دورة تتبدل فيها أحوالها!

نفضت تلك الأفكار التي باتت تحوم في عقلي؛ فذلك الفرض سوف يقودني إلى فرض أكثر لا معقولية، وهو تناسخ الأرواح! وهذا أمر يفوق قدرتي على الاحتمال والتفكير في هذه الليلة المضنية.

انتهيت من حمامي الساخن في حالة تشبه المُخَدرين؛ فذلك التمدد الذي سرى في أوصالي من فرط البقاء في الماء مدة طويلة، وسط بخار يشبه الأشباح، ووسط أفكار تشبه خيوط الجنون، جعلني في النهاية في مرحلة ما بين اليقظة والخمول، الوعي والغيبوبة في آن واحد.

اللعنة على نوبات البرد، تُفقِد المرء حقًّا قدرته على الاحتمال، فلا مفر منها إلا بقدر مقابل من الراحة، أما العناد فلا يعود إلا بمزيد من العناء!

ارتديت ملابس ثقيلة، ولففت ذلك الرداء الصوفي حول جسدي، وتلك الكوفية حول عنقي، ثم مضيت في تثاقل المغيبين إلى المطبخ.

أعددت قدحًا من الشاي الساخن، وتوجهت إلى تلك الأريكة المريحة في حجرة المكتب، أدرت المذياع على الموسيقي الكلاسيكية ذاتها، ثم استرخيت على الأريكة بعدما التقطت تلك الورقة التي دونت فيها بعض ما سمعت من الدكتور الشبراوي، حول هؤلاء المختلين، الذين يشتهون الأطفال على خلاف الفطرة، أولئك الذين يسيرون عكس المسار في طريق النفوس السوية.

أخذت أنظر إلى تلك النقاط التي أوجزتها في تلك الورقة، وتلك الخطوط التي أرسلتها أسفل بعض السطور، وإن كانت مجمل السطور تقع في منتصف دائرة الاضطراب العقلي والنفسي.

«الغلْمانيّة» ذلك هو المصطلح الذي استخدمه في حديثه معي، وهو مرض النزوع إلى الأطفال، كموضوع جنسي، ذلك الاضطراب الذي يحدث بفعل أمور كثيرة، غير محصورة بشكل دقيق؛ فقد لوحظ أن ذلك المرض ربما يكون في بعض الأحيان عَرَضًا لبعض الأمراض العقلية العصابية، وفي أحيان أخرى يكون تحول سلوكي، أو اضطراب سلوكي أصيل في الفرد، أو عارض بفعل أمور مختلفة.

كان الأمر مفزعًا لي حقيقة، بل ومثيرًا للاشمئزاز وأنا أسمعه يحدثني عن ذلك التصنيف المخيف لهؤلاء المرضى؛ فهم لا ينزعون إلى فئة الأطفال من مرحلة ما قبل البلوغ، بل الكارثة قد تتمادى لاشتهاء من هم دون العام الواحد، في إحدى التصنيفات ذات المسمى المختلف.

وكان السؤال الذي أخذ يرن في رأسي كأجراس الكنائس، هل فعل ذلك الذئب الجرم ذاته؟ هل تمادت أنيابه الدامية، إلى من هم دون ذلك العمر؟ كان الأمر أشبه بعملاق ضخم، أعمى العينين، يسير في ساحة بستان عريض، ممتلئ بالزهور، قدماه

وخطواتـه ذات وقـع مرعـب، يسـحق تحـت حذائـه الكبيـر الزهـور، زهـرة تلـو الأخـرى.

ملاحظـة أخـرى، تلقـي بسـفن الشـك علـى شُـطآن مـن يعانـون مـن سـادية متطرفـة، إذ الأمـر لا يتعلـق بالاشـتهاء، بقـدر مـا يتعلـق بفـن التعذيـب والإيـذاء؛ فالقضيـة هنـا تتمحـور حـول مـدى ضعـف الضحيـة، ومـدى خوفهـا وارتعاشـاتها، وخضوعهـا وقـت ارتـكاب الجريمـة، الأمـر يتعلـق بمنظـر الدمـاء السـاخنة، التـي تتفجـر مـن أوردة لـم تعـرف سـوى البـراءة.

أظـن أن في تلـك المعادلـة متعـة قصـوى لشـخص سـادي إلـى أبعـد مـدى، لكـن المـزج في حديـث الطبيـب، والـذي قلـب الطاولـة رأسًـا علـى عقـب، وبـدل مواضـع الأوراق في عقلـي، هـو تلـك السـمات التـي تَحـدّث عنهـا لهـؤلاء المرضـى؛ فـإن معظـم التوصيـات التـي تعنـي بمـرض (الغلمانيـة) تتوقـع في الغالـب أن الفـارق العمـري بـين الجانـي والضحيـة عـادة لا يقـل عـن خمسـة أعـوام فمـا أكثـر، أي أنـه مـن المحتمـل جـدًا، أن يكـون الجانـي أحـد المراهقـين الـذي قـد لا يتجـاوز عمـره العشـرين عامًـا، وهـذا يوسـع مـن دائـرة الشـك إلـى أبعـد مـدى، كمـا أنـه أكـد لـي أن هـؤلاء المرضـى في الغالـب وليـس كقاعـدة عامـة، قـد يلاحـظ عليهـم ملامـح العزلـة، عـدم القـدرة علـى التواصـل مـع المجتمـع المحيـط، وفي كثيـر مـن الأحيـان يعانـون مـن

التدني في معدلات الذكاء العام، وذلك الأمر قد يعني أنني على أن أوسع دائرة البحث إلى من يعانون حالة من حالات الفشل العام في حياتهم، ولكن من منا في هذا المجتمع لا يعاني الفشل بدرجة أو أخرى؟!

وتبقى قضية يصعب الكشف عنها، وملاحظة يصعب التأكد منها؛ فقد يتحول الإنسان من شخص سوي إلى مصاب بهذا المرض، نتيجة لممارسة جنسية صادمة، مؤلمة، بعدها يعاني رويدًا من النفور متجهًا إلى عالم الطفولة.

كنت أتابع الملاحظات وأنا أشعر بأن الدائرة تتسع لكي تشمل العالم كله، خاصة بعدما أكد لي أن هذا المرض يصيب الرجال والنساء على حد سواء، وإن كان الأول له نصيب الأسد في ذلك، ولكن هذا لا يعني استبعاد المرأة من المعادلة كلية.

نظرت في ساعتي بعدما انتهيت من قدح الشاي، فوجدتها قد تجاوزت الثانية صباحًا، وكان لزامًا عليّ أن أخلد للنوم؛ فقد حان وقت العمل والبحث بكل قوة.

اعتدلت متوجهًا إلى مكتبي، والتقطت ورقة فارغة، كتبت فيها بعض الأشياء التي من الواجب أن أنجزها في الصباح؛ فيبدو أنني بحاجة إلى مزيد من الدعم من رجال العمل السري، ثم رسمت دائرة واسعة، ووضعت فيها كل مَنْ هم محل شك.



obeikan.com

وكان هـؤلاء الغربـاء يحتلـون موقعًـا مميـزًا بداخلهـا، رغـم أن القـراءة الأولـى ربمـا تبعدهـم عـن دائـرة الشـكوك، بحسـب الملاحظات النفسـية التـي سـمعتها في هـذه الليلـة، ولكـن قـد يكـون لتلـك السلسـلة مـن الجرائـم أبعـاد أخـرى يصعـب الكشـف عـن ملامحهـا في الوقـت الحالـي.

وضعـت الورقـة في جيبـي، ثـم اتخـذت طريقـي إلـى خـارج الحجـرة متجهًـا إلـى الـدرج صاعـدًا إلـى الطابـق العلـوي، وبداخلـي رغبـة جارفـة في الراحـة مـن هـذا العنـاء.

●●●

obeikan.com

# الرّاعي

لـم أعـرف النـوم إلا قليـلاً في تلـك الليلـة؛ فقـد كانـت الأفـكار تتنازعنـي بعدمـا اسـتحوذت علـى عقلـي، وكأنهـا الذئـاب تنهـش في جثـة طفـل بائـس، باغتنـي كابـوس مزعـج، لذئـب يعـوي في الظـلام علـى ضـوء قـرص القمـر الباهـت، وكأنـه يعلـن التحـدي لذلـك الباحـث عـن الحقيقـة، كان عـواؤه عاليًـا، وصاخبًـا، وكأنـه يعلـن أنـه ملـك متـوج علـى تلـك البقعـة النائيـة، وتلـك الصحـراء الغامضـة.

اسـتيقظت علـى نـداء الحـق المتصاعـد في السـماء، وشـتان مـا بـين عـواء الشـر، ونـداء الخيـر، أكملـت دورتـي الصباحيـة، والطقـوس المبكـرة؛ الصـلاة، وقـدح مـن القهـوة، وقطعـة مـن الخبـز المحمـص، والجـبن الـلاذع، ثـم اسـتقر بـي المقـام في لحظـات الشـروق علـى مكتبـي جالسًـا في حيـرة، قلـم في يـدي، ولفافـة مشـتعلة في اليـد الأخـرى، وأمامـي ورقـة فارغـة.

أخـذت أصـب شـتات أفـكاري علـى صفحـة الورقـة البيضـاء؛ أخـذت أرسـم بعـض الرسـومات المبهمـة؛ فتـى الأباتشـي ممسـكًا برمـح في يـده بحثًـا عـن ذئـب سـارح في الغابـات، وفتـى آخـر يمسـك في يـده عصـاة خشـبية غليظـة، يهـش مـن أمامـه قطيعًـا مـن الحمـلان، وهـو يتلفـت في حـذر، يمينًـا ويسـارًا، في احتـراس مـن الذئـاب.

لمعت في رأسي صورة ذلك الراعي، وتلك الحملان الهادئة، التي تسير منكسة رأسها في براءة، تلتهم من حشائش الأرض ما يسد جوعها، في هدوء وسلام، وكأنها تعلم أن هنالك من يرعاها، ويعمل على حمايتها.

في النهاية كتبت عبارة موحية، أن على الراعي أن يكون بين الحملان.

أكملت ارتداء ملابسي سريعًا بعد تلك العبارة الرنانة؛ ملابس ثقيلة تعلوها ذلك البالطو الأسود الطويل، كنت حريصًا ألا أفتح الأبواب لموجات الهواء الباردة، فلست في موقف يسمح بانتكاسة أخرى في صحتي في تلك الأيام الباردة.

أرسلت الكوفية القاتمة حول عنقي، ثم وقفت أمام المرآة أهندم شعري وملامحي، لاحظت بعض الشعيرات البيضاء في منتصف رأسي، يا إلهي! هل تقدمت في العمر إلى حافة المشيب حقًا؟! أم أن تلك الجريمة رسمت خطوطها على ملامح رأسي؟! تخلصت من تلك الأفكار بزخات من العطر المنعش، ثم توجهت إلى غرفة نومي، حيث التقطت تلك الحقيبة التي زودتها ببعض من الملابس المتنوعة، وقليل من الكتب والورق والأقلام، وكل ما قد أحتاجه في إقامة قد تطول، ثم تراجعت هابطًا إلى أسفل.

أحكمت إغلاق المنافذ من خلفي، حتى وصلت إلى خارج أسوار المنزل، ووضعت الحقيبة في خلفية السيارة، كان الجو باردًا، وإن كان يحمل في موجاته الباردة، قدرًا من النقاء المنعش.

ركبت السيارة وأنا أطالع ساعتي التي تجاوزت السابعة صباحًا، أدرت محركاتها بكل حماس، ثم انطلقت صوب القسم.

وصلت القسم على مشارف الساعة التاسعة تقريبًا، كان الهدوء يسيطر على أركانه، أرسلت التحيات المعتادة على سكانه في الطابق الأول، والذين اعتادوا على وجودي؛ فصار بيني وبينهم قدرًا من الود الذي قد يصل إلى حدود المزاح السمج. عرفت منهم أن عصام لم يعد حتى الآن، بينما يرقد صلاح في حجرة مكتبه، قفزت درجات السلم في نشاط مفاجئ، حتى وصلت إلى حجرته، كان مستيقظًا على خلاف توقعي، وجدته جالسًا في هدوء، ربما يقارب الملل، تهلل حينما رآني بادرته باسمًا: - كيف حالك يا سيادة النقيب (نوع من التفخيم)؟ يبدو أنك لم تعرف للنوم طريقًا مثلي!

قاطعني ضاحكًا في تهلل:

- نعم، النوم صار عصيًّا في هذه الأيام.

obeikan.com

قاطعته وأنا أدقق في تلك الهالات السوداء التي سرحت تحت عيونه قائلاً:

- حسنًا، أنا لم أنم لفرط انشغالي بهذه القضية الغامضة، فماذا عنك؟

وتابعت في سخرية:

- هل هو الحب كما أعتقد؟

قهقه في سذاجة قائلاً:

- إذا كان الأرق درب من دروب الحب، فهو الحب إذن.

سألته في حذاقة:

- هل كنت تحب المدرسة وأنت طفل صغير؟ والاستيقاظ مبكرًا؟ والماء البارد؟ وتوجيهات الأب، وصراخ الأم؟ ذلك الروتين اليومي.

واستفضتُ في نشوة:

- عن نفسي، كنت أكره الدراسة بصورة مفزعة، ومن الغريب أنني أكملت دراستي إلى هذا الحد!

obeikan.com

نظر إليّ في دهشة قائلاً:

- هذا أمر لم أكن أتوقعه، بل إنني تصورتك من هذا الصنف من المتفوقين، الذين يقتاتون على الكتب كدود القز!

ضحكت في حماس:

- على العكس تمامًا؛ لقد كنت صعلوكًا كبيرًا، ومع هذا فالقراءة أمر آخر، درجة أرقى من أي دراسة أو تعلم، ولكنك لم تجبني؛ هل كنت تحب المدرسة؟

عاد برأسه إلى الخلف وكأنه يسترجع الذكريات قائلاً في تنهد:

- نعم، لقد كنت أحبها، كان مدرسة راقية، نظيفة، واسعة، بها كثيرًا من الأطفال، كنت أنسى بينهم للحظات معالم وحدتي، قاطعته في صفير مباغت قائلاً:

- حسنًا أيها التلميذ المجد، سوف أعيدك إلى سنوات الطفولة!

سحبته من ذراعه في استعجال:

- هيا بنا،هيا.

قاطعني في دهشة:

- إلى أين؟!

أجبته وأنا أنظر في ساعتي:

- إلى حيث ترقد الحملان.

قفزنا على عجل في سيارتي، بينما كان صلاح مندهشًا من موقفي في هذا الصباح الباكر، جلس إلى جواري قائلاً:

- ماذا سنفعل في مدرسة القرية؟

وتابع في تردد:

- أرجو ألاّ تخبرني أنك سوف تستجوب التلاميذ!

ثم في تشنج:

- فهذه مهمة في غاية السماجة.

قاطعته ضاحكًا:

- على العكس، ولكني لا أنوي مثل هذا الأمر حاليًا، إنني أريد فقط أن أستعيد الذكريات؛ أن نجلس وسط الأطفال، ونحضر أحد الدروس، ونستمع إلى مدرسة جميلة.

obeikan.com

واستطردت في دهاء:

- أو ليست جميلة على ما أعتقد؟

نظر إليّ في دهشة قائلاً:

- من تقصد؟!

أجبته ضاحكًا:

- أقصد الأستاذة/ إيمان العامري، أليس هذا اسمها على ما أتذكر؟

أجابني في انشراح:

- إن كان الأمر بهذه الصورة، فلك أن تعتبرني تلميذًا منذ هذه اللحظة.

وتابع في تردد:

- لكن أرجو ألاّ تقل لي أنك تشك بها!

قلت له ضاحكًا:

- وهل أعرفها حتى أوجه شكي نحوها؛ ولكني تصورت من ملخص الحديث عنها أنها قريبة من الأطفال، ومن أهلهم، وربما بسؤال الراعي، سنعرف أحوال الحملان. لم يفهم جملتي الأخيرة،



obeikan.com

ولكني لاحظت أنه شرد في عالم آخر، وكأنه يرتب في ذهنه ملامح هذا اللقاء، ويا لسذاجة العاشقين!

توقفت بسيارتي خارج القرية، ثم طلبت منه النزول والترجل، نظر إليّ في دهشة صائحًا:

- لا، فما زال الطريق طويلاً حتى حدود المدرسة، قاطعته في ابتسام:

- منذ اليوم عليك أن تنسى حدود الرفاهية، إنني أريد أن أكون في قلب هذه القرية، وأن أختلط بأهلها، وأطالعهم عن كثب، كما أريد أن أعلن عن وجودي بداخلها؛

فلعل رسائلي تصل إلى ذلك الذئب المتخفي خلف ملابس البشر.

خضع إلى أوامري في دهشة، ثم انطلقنا سيرًا على الأقدام بعد أن اتخذت مستقرًا مناسبًا لسيارتي.

كان الجو أشد برودة على مشارف القرية، على حدود ذلك الطريق الترابي الممتد حتى حدود القرية المجاورة، والتي تبعد عنها عشرة كيلومترات، ظللنا نتسكع في الطرقات الواسعة، قبل تشابك البيوت والعمران، يمر من جوارنا الفلاحون على ظهور

obeikan.com

الدواب، يلقون علينا التحيات الصباحية، تسبقها نظرات الفضول حول هؤلاء الغرباء!

بعد وقت قليل من السير في الطرقات، أبصرت ما يشبه المقهى، عليه نفر قليل من البشر، طلبت من صلاح أن نتوقف لاحتساء مشروب ساخن، عارضني بحجة أننا سوف نتأخر عن حصة الحسناء، لكني أخبرته أن الساعة لم تتجاوز العاشرة، وما زال أمامنا متسع من الوقت.

دلفنا إلى داخل المقهي، مساحة خالية في مقدمته، أما المقاعد المتهالكة، والطاولات العتيقة، فكانت منزوية في الداخل في تراكم، مع قلة الرواد في هذا الصباح.

كان النادل يعرف صلاح رغم ارتداءه لملابس مدنية؛ فقد تهلل بمجرد رؤياه، جلسنا بعد ترحاب النادل، وطلب كل منا مشروب الشاي الممزوج بالحليب الطازج. . أشعلت لفافة بعد جلوسي، وأخذت أتأمل المكان من حولي؛ بعض الحرفيين يجلسون على البعد، ينظرون إلينا في تعجب وفضول.

جلست أحتسي المشروب أنا ورفيقي، مستمتعًا بصوت بعض الأغاني الصباحية التي تصدح من مذياع المقهى، حتى أقبل شاب غريب الهيئة، كان يرتدي جلباب منزليًا مخططًا، يعلوه جاكيت

صوفي، وعلى كتفه حقيبة من الأقمشة، ويرتدي قبعة عتيقة على رأسه.

كان في أواسط الثلاثينيات، نحيل للغاية، وذو وجه برزت العظام منه، وفم متسع، وأنف طويل، وعيون ضيقة، تلمع بذكاء مبهم، أذناه طويلتان في بروز، وذو ابتسامة طفولية ملفتة.

أقبل على المقهى باسمًا، ثم جلس في ذلك البراح الواقع أمام المقهى، جلس أرضًا، وأخرج من حقيبته قلمًا وورقة، ثم مال راقدًا على الأرض! جعل التراب يعلق بملابسه النظيفة، وظل في الأرض نائمًا، وهو يمسك بالقلم، ويخط في الورقة، كلمات حاول إخفاءها بيده الأخرى!

استوقفني المشهد تمامًا، ناديت على النادل، ثم همست إليه وأنا أنظر إلى ذلك الغريب وسألته:

- من هذا الغريب؟

أجابني مبتسمًا، لا عليك به يا سعادة البيه، إنه تهامي المجذوب.

●●●

# المَجْذوب

جذبني المشهد  تمامًا أنا ورفيقي الراقد إلى جواري؛ فجلست أتابع ذلك المجذوب كما أطلق عليه النادل، كان ذلك الشاب ممددًا إلى جوار الحائط في تلك المساحة الخالية من أمام المقهى، وإن لم يكن بمعزل عن السائرين في الطرقات، فقد كان يعترض طريق من أراد أن يدلف إلى المقهى.

وكان في المكان ذاته واضحًا للسائرين في ذلك الطريق الترابي من أمام المقهى، كان منكبًا على الأوراق التي في يده، وهو يخط شيئًا في طيات الأوراق التي يحاول إخفاءها بيده الأخرى.

كانت أنامله النحيفة تمسك بالقلم بطريقة غريبة، وكانت حركة يده بطيئة للغاية، كطفل يتعلم فن الكتابة أو الرسم للمرة الأولى! كان المجذوب أو تهامي منهمكًا في الكتابة، دون وعي منه لمن تملكهم الفضول في مراقبته، وكأنه في رحلة إلى عالم آخر، بعيدًا عن حدود القرية، والمدينة، والوطن، بل بعيدًا جدًا عن ذلك.

سمعت من ورائي هؤلاء الحرفيين الجالسين على المقاعد من خلفي، وهم يضحكون في نشوة، بينما يتداولون بشأن شيء

ما، شيء لم أستوضح منه سوى حديثهم لأحدهم أن يقوم إلى حيث ينام المجذوب.

قام الشاب الحريف من ورائي، وتوجه خطوات للأمام حتى صار واقفًا أمام تهامي ثم بادره ضاحكًا:

- وريني بتكتب إيه يا تهامي؟

لاحظت أن تهامي تشبث أكثر بأوراقه، وتمادى في حرصه على إخفاء ما فيها، وهو يكرر في تلعثم من أثر الانفعال الذي كان واضحًا في تشنجات وجهه التي باتت تهتز في تكرار آخر قائلاً وهو يحتضن أوراقه:

- سيجارة وكوباية شاي.

ضحك الشاب الآخر قائلاً:

- لا كتير يا تهامي، سوف أعطيك ربع جنيه.

نظر إليه تهامي عاليًا، وقد هدأت ملامح وجهه تمامًا، كان أمر لافتًا، فقد سرى قدر من الصفاء على ملامحه، وانتقلت ملامحه من حالة الجنون إلى الثبات، ثم بادره قائلاً:

- ماشي.

أخرج الشاب الآخر النقود من جيبه ومررها إلى تهامي الذي التقطها ثم دسها في تلك الحقيبة المعلقة على كتفه، ثم أعطى للشاب الورقة الأولى، التي كان منهمكًا في كتابتها من دقائق قليلة، مضى الشاب عائد إلى أصدقائه؛ إذ انفجروا في نوبة من الضحك، وهم يطالعون ما فيها.

ظللت أراقب ذلك المختل بكثير من الفضول، بعدما طلبت قدحًا من الشاي، وعلامات الضيق تعلو على وجه رفيقي الذي كان ينظر في الساعة في توتر، خشية فوات اللقاء المنتظر.

لكني ألححت عليه أن يتشبث بمعالم الصبر، وأن يطالع ويراقب معي هذا المجذوب، لكنه لم يفعل بالقدر ذاته من الحماس! عاد المجذوب إلى وضعه راقدًا، وانكب على ورقة أخرى، أخذ يخط فيها شيئًا جديدًا، شيء حتى الان لم أعرفه، ولم أعرف كنهه.

كان يداري الورقة بكفه الآخر، في حرص آخر، كان الأمر مثيرًا للاهتمام، وظلت الأفكار تجوب في عقلي، وأنا ألاحظ حركاته وسكناته، وخاصة بعدما تكرر معه الموقف ذاته من أحد المارين في الطريق، الذي اتخذه مسارًا للسخرية، بعدما مرر إليه لفافة من التبغ، والتقط منه تلك الورقة التي كان يكتبها، والتي أمعن النظر فيها ضاحكًا، ثم سار إلى حال سبيله بعدما ألقى التحية على بعض الراقدين على المقاعد في المقهى.



obeikan.com

تصورت في البداية أن هذا الأمر نوع من أنواع التسول، أو وسيلة من هذا المختل لكي يحفظ به ماء وجهه؛ فتلك الوسائل عادة ما تصادفنا، في امرأة تمر في الطرقات لتوزيع بعض الآيات القرآنية الصغيرة، أو طفل بائس يصعد إلى الأتوبيسات لكي يبيع المناديل، وكثيرًا ما يدفع الناس النقود لهؤلاء، دون الاحتفاظ بهذه السلعة، او رغبة حقيقية في الشراء.

كان هذا تصوري المبدئي، لكني عندما دققت في ملابسه التي أتى بها في البداية، كانت نظيفة للغاية، وليست رثة بالشكل المعتاد لكثير من المتسولين، وهذا يدل على أن هنالك أحد ما يعتني به، وبحاجاته الشخصية؛ وذلك جعلني أميل إلى تصور آخر وهو وجود خلل ما في ذهن هذا الشاب النحيف.

انتهيت من قدح الشاي على إلحاح رفيقي في أن ننهض للحاق بما وراءنا وما أتينا من أجله، وضعت الكوب الفارغ إلى جواري، وقلت لصاحبي أن يقوم لدفع الحساب، واعتبار هذا أمر من قائده، أو بمثابة عزومة إجبارية؛ فقام في تثاقل جهة النادل، في حين توجهت أنا ناحية ذلك المجذوب، الذي كان منهمكًا في كتابة ورقة أخرى.

وقفت أمامه، فأخذ ينظر إلى حذائي، ثم انكمش في رد فعل متكرر؛ محاولاً إخفاء معالم الورقة التي كان يكتبها.

جلست القرفصاء أمامه، بعدما أخرجت جنيهًا من جيبي، ثم أخذت أمرر العملة من أمامه قائلاً:

- كيف حالك يا تهامي؟ هذا الجنيه بأكمله من أجلك نظير أن تريني ما تكتب؟

اعتدل جالسًا أمامي وهو يحتضن الأوراق في تشنج قائلاً:

- عايز ربع جنيه.

ضحكت من رد فعله قائلاً:

- هذا جنيه بأكمله!

فأخذ يهز ذراعيه المضمومين إلى صدره، ويتلاعب بمستوى أكتافه في تمنع قائلاً:

- عايز ربع جنيه، ربع جنيه وبس.

تعجبت كثيرًا من إصراره على ذلك؛ فقمت واقفًا، وأخذت أبحث في جيوبي عن ذلك الربع المطلوب، حتى عثرت على أحدهم، ثم عاودت الجلوس أمامه قائلاً:



obeikan.com

- ها هو ربع جنيه، خذه فهو لك منذ الآن.

التقطه كما الأطفال، ودسه في جيب جلبابه، ثم أعطاني تلك الورقة، وقفت أطالعها لكني شعرت بيد صلاح تربت على كتفي قائلاً:

- هيا بنا.

سرت معه والورقة في يدي، والتي أخذت أطالعها بمزيد من العجب؛ فقد كان الخط رائعًا، وكانت الكلمات نوعًا من الزجل، أو ما شابه، لكن الكلمات كانت غريبة، خطيرة، لا أعرف حقيقة وصفها، كانت تقول:

سلمى يا سلامة ●●● لا روحنا ولا جينا بالسلامة

وسلامة مات مقتول ●●● وما عدتش لينا أصول

والحُر بعد القول ●●● في الزحمة بات مجهول

ولا فاعل ولا مفعول ●●● ولا كلمة ولا علامة

سلمى يا سلامة ●●● لا روحنا ولا جينا بالسلامة

أعدت قراءة الكلمات أكثر من مرة أثناء سيري، لدرجة أنني كنت أتعثر في طريقي، وكدت أسقط أكثر من مرة، لقد تفجرت الأسئلة في رأسي، وتبعثرت الشكوك في صدري، ما معنى هذا الحديث المبهم؟! الصادر من مجذوب، تائه، غامض، مغيب العقل؟

وبماذا يعني بذلك الشطر المثير(سلامة مات مقتول)؟ كيف يعلم بوقوع تلك الجريمة؟! وهو مجذوب كما يدعي الناس! وكيف يجزم أنه مات مقتولاً؟! لا عن طريق ذلك الذئب الذي يقتنص الأطفال ليلاً!

إن الأمر وراءه سر غريب، سر غامض، هذا المجذوب نفسه من ورائه شيئًا مريبًا؛ فإن خطه جميل، ورائع، وهذا يعني أنه متعلم بكل تأكيد، فكيف انحدر به المستوى إلى هذه الدرجة؟ وما هو السر في اختلال عقله؟ هذا إن كان مختلاً من الأساس.

دسست الورقة في جيبي، ولكني ظللت طوال الطريق منشغلاً بهذا الحادث العجيب. كنت مغيبًا أنا الآخر في عالم من الشكوك؛ لم ألحظ مرور الوقت، ولا اقترابنا من المدرسة المنشودة، إلا بعدما استوقفني صلاح صائحًا: إلى أين؟! توقف، لقد وصلنا إلى المدرسة، أو مجمع المدارس، فقد كانت مدرسة القرية، في مكان فسيح على أطراف القرية، ولكنه قريب من مساكن الفلاحين،

obeikan.com

مجمع مدرسي يضم مدرسة ابتدائية، وأخرى للمرحلة الإعدادية إلى جوارها، والمدارس مختلطة في كلتا المرحلتين، ومن بعد المدرسة يوجد طريق ترابي آخر، يوصل إلى أراضي زراعية على بعد كيلومتر أو أقل.

توقفت أمام باب المدرسة، أتطلع إلى ذلك الاسم البارز على تلك اللافتة التي تعلوه، كُتب عليها: مدرسة/ عبد الله النديم الابتدائية.

●●●



obeikan.com

# الحوراء

كانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة والنصف، الأجواء باردة، شمس لطيفة تسطع في السماء، وصوت صياح الأطفال في داخل الفصول كالديوك التي فقدت معايير الوقت، وتجاوزت حدود الفجر دون انتباه منها، وما زالت تصدح حتى في وقت الظهيرة.

بعد طرقات قليلة من أنامل صلاح على تلك البوابة العريضة التي ترقد تحت اللافتة الشاحبة، ظهر من وراء ضفتي تلك البوابة الصدأة، رجل أسمر، ذو عمامة بيضاء، وجلباب رمادي متهالك، رجل قصير، ونحيف، وعجوز، ذو لكنة غريبة بعض الشيء.

تكفل صلاح بالحديث معه في حين كنت مشغولاً في تأمل هذا العالم الغريب من حولي، تبدل فضول الرجل الناطق في ملامحه، إلى اهتمام مبالغ فيه، وهو يشيعنا بذراعيه في ترحاب وهو يصيح:

- تفضلوا، حضرة الناظر في مكتبه.

تقدمت أنا ورفيقي خطوات للداخل، وباتت صورة هذا المكان المتهالك أكثر وضوحًا من الداخل؛ أسوار المدرسة قديمة، وقصيرة، ومليئة بالشقوق.

obeikan.com

تجاوزنا تلك المسافة القصيرة من الأرض الفضاء، والتي يطلق عليها تأدبا: الساحة المدرسية، وفي حقيقة الأمر، إنها لا تصلح لممارسة اللعب أو الانطلاق بأي حال من الأحوال.

كان عَلَم البلاد المهترئ ذا الألوان الباهتة، يرفرف على ساري صدأ، كخرقة بالية لا تقوى على مواجهة الرياح العاتية.

وصلنا إلى حدود ذاك المبنى العريض، الذي يلتهم مجمل مساحة المدرسة، وهو في حقيقة الأمر ثلاثة مبانٍ ملتصقة ببعضها، ويبدو أن هنالك فارق زمني بينهم؛ فمع زيادة الحاجة إلى مزيد من الفصول، تحول المبنى من واحد إلى ثلاثة؛ كانت المكاتب الإدارية تقع في الدور الأول، من أصل أربعة أدوار لهذا المبنى المركب.

وفي حديث قصير مع حارس المدرسة، اكتشفت أن هذه ليست مدرسة ابتدائية فقط، بل إن اثنان من المباني لطلاب المرحلة الابتدائية، والمبنى الثالث لطلاب المرحلة الإعدادية.

أما المدرسة الأخرى المجاورة، فإنها مغلقة منذ سنوات، في نزاع حكومي بين كلا من وزارة التربية والتعليم، ووزارة الشباب والرياضة؛ الأولى تطالب بضمها لمجمع المدارس، وتضع يدها عليها، والثانية تنازعها في ذلك، وتطلب أن تكون مركزًا لشباب القرية.

وصلنا سريعًا إلى مكتب مدير المدرسة، الأستاذ/ عبد المقصود، ذلك المكتب الذي يقع في منتصف الطابق الأرضي من المبنى الرئيسي لهذه المدرسة.

طرق ذلك الرجل العجوز الباب من أمامنا، ثم دلف إلى داخل حجرة المدير، ولم يستغرق الأمر ثوانٍ قليلة حتى أبصرت الحارس ومعه كهل نحيف، يأتيان إلى الباب لاستقبالنا.

استبصرت سريعًا أن ذلك هو الأستاذ/ عبد المقصود، كان رجل ذا ملامح هادئة، أقرب إلى الوداعة والسكينة، ذو صوت هادئ، وابتسامة بشوشة أو ربما راضية، نحيف البنية والوجه والملامح، ويرتدي قميصًا أبيض ذو خطوط زرقاء، وبنطال بني مجعد، ذو شعر اختلط فيه الشيب بالسواد؛ فصار أقرب إلى كومة من الفضة الخشنة، عيناه عسليتان، وأنفه مدبب، ذو ثغر واسع، يملأ وجهه تجاعيد الحزن التي يرقد في منتصفها ابتسامة شاحبة.

سلم علينا في حرارة ثم دعانا إلى الدخول إلى مكتبه، أحسست للوهلة الأولى بمدى رقة هذا الرجل، تلك الرقة التي ربما تنعكس على مسلك الشخص وحضوره، فتحوله إلى رجل خفي، ناعم إلى درجة التلاشي، وفي الحقيقة لم أشعر بأنني

في حضرة السيد المدير، رمز السلطة، ومصدر العقاب، بقدر ما شعرت أنني في حضرة متصوف، زاهد، ولكن لم تستمر معي تلك الحالة الشعورية طويلاً؛ فقد كان ينتظرنا داخل المكتب طرف آخر، بدل من تذوقي لتلك الحالة العذبة.

كان المكتب متواضعًا جدًا، مكتب في صدارة الحجرة، في منتصف الحائط المواجه للباب من الجهة الأخرى، يرقد أسفل نافذة زجاجية عريضة، تعلوها ستائر خضراء قبيحة المظهر، إلى جوار المكتب على الحائط جهة اليمين خزانة ضخمة، مقسمة إلى عدة أقسام، بداخلها ترقد العديد من الملفات المتهالكة التي أكل عليها الدهر وشرب، ومن أمام المكتب كانت ترقد عدة مقاعد في اصطفاف متقابل؛ مقعدان عن اليمين، ومقعدان جهة اليسار، كانت ترقد جهة اليمين تلك الشخصية التي كانت تشع حضورًا، ذو تردد مبهم، ومثير.

لاحظت حين تقدمي إلى الداخل خلف المدير، أن رفيقي صلاح تمهل قليلاً بالخارج لكي يهندم من ملابسه، ثم دلف إلى الداخل وهو يتهلل فرحًا، كانت فرحته تتقاطع مع صوت المدير، الذي كان يشير إلى تلك السيدة الجالسة بظهر منتصب، وهامة مرفوعة بحدة قائلاً:

- هذه الأستاذة/ إيمان العامري، أفضل مدرسات المدرسة.

ثم استدار نحوي قائلاً:

- وهذا السيد (في استفهام)

قاطعته قائلاً:

- الرائد/ أيمن النواوي، ورفيقي...

كان صلاح يقف خلفي وعلى وجهه ابتسامة فرحة، إذ قاطعني قبل أن أكمل حديثي قائلاً:

- كيف حالك يا أستاذة إيمان؟

نظرت إليه في ابتسامة هادئة قائلةً:

- بخير، أشكرك.

أحس صلاح بخيبة أمل من ردها المقتضب، لدرجة أنني اضطررت أن أجذبه إلى جواري على المقعد تلبية لطلب مدير المدرسة، استأذنتهم في أن أشعل لفافة من التبغ، إلا أنني واجهت رفضًا من تلك المدرسة الجامدة كالتمثال الرائع القسمات، تعللاً منها بإحساسها بضيق في الصدر من موجاتها الخانقة.

obeikan.com

ظللت ممسكًا باللفافة في يدي دون أن أشعلها، بينما بادرني المدير ضاحكًا وهو يقول:

- الأستاذة/ إيمان بالاضافة إلى كونها مدرسة رائعة المهارات، ومحبة للأطفال، فإن لها اهتمامات بمجال الصحة، وخاصة في مجال الطفولة.

أخذت أستمع إلى المدير، وهو يشيد بتلك الفتاة الغامضة، ولكني في حقيقة الأمر كنت أتأملها ولعلي أقارن بين ما أسمعه، وما أراه أمامي؛ فالشك هو سلاحي الأول في عالم الجرائم.

كانت جميلة، بل جميلة جدًا، هذه حقيقة لا تقبل الشك! ولكنها حقيقة مثيرة للشكوك بشكل عاصف؛ فما الذي يأتي بسيدة جميلة مثلها إلى تلك المنطقة المقفهرة؟! ولماذا تدفن نفسها وسط الرمال؟ هل هي الإنسانية كما سمعت من البعض؟ هذه مقولة بحاجة إلى مزيد من التدقيق، كانت بيضاء البشرة، مستديرة الوجه، ذات ذقن مدبب قليلاً، عيناها واسعتان بشكل لافت، وكأنهما نافذتان يطلان على العالم من حولها، حوراء، في عينيها سواد الليل الحالك، الغامض، لها ثغر رقيق، غارق في الدماء المصطنعة، يشكل هلال من الغواية، أسنانها ذات اصفرار طفيف، ومتناسقة في اصطفاف مغر، لها حاجبين رفيعين في استطالة.

ولا أعرف لماذا خمنت أن لها شعرًا كاحل السواد كعينيها، ناعم كالحرير؛ فقد كان متخفيًا أسفل حجاب أبيض، منمق، ورقيق.

كانت ترتدي ملابس عملية محايدة؛ بدلة سوداء، وقميص أبيض يماثل لون حجابها كان ردائها واسع قليلاً عن مقدار قوامها المشوق.

أخذت أتأملها، وأتفحص تلك المخطوطات الكبيرة التي كانت ترقد في لفائف إلي جوارها، حتى انتهى المدير من خطبته العصماء؛ فالتقطت قدح القهوة من أمامي، والذي أتى به الساعي، وارتشفت منها رشفات الواثق، بخلاف رفيقي الذي جلس ذاهلاً إلى جواري يتأمل تلك الفاتنة في سذاجة، ثم ابتدرت المدير قائلاً:

- يبدو أن الأستاذة/ إيمان كما تقول لديها مهارات رائعة، يندر أن تتوجد في مكان ناءٍ مثل قريتكم! وأظنها ستكون مفيدة لنا في مهمتنا هنا.

نظر إليّ المدير في فضول، ولكني استرسلت عاقدًا كفي في تصميم:

- وأظنها ليست بالمهمة السهلة، إنني أريد أن أعرف كل المعلومات المتوفرة عن أطفال المدرسة، وخاصة الأطفال الذين

راحوا ضحية للجرائم المبهمة التي أصابت القرية في السنوات الماضية.

نظرت إليّ إيمان وهي رافعة رأسها، وكأنها تحاول أن تحافظ على استقامة ظهرها على الدوام قائلة:

- ماذا تريد أن تعرف تحديدًا؟ وكيف سيفيدكم ذلك في حل مثل هذا اللغز؟

أجبتها باسمًا:

- أريد أن أعرف كل شيء؛ أسماءهم، مستوياتهم المادية، ومستواهم الدراسي، والصحي، كل شيء ممكن، سوف يكون مفيدًا جدًا.

قاطعتني في إصرار:

- وكيف ستفيدكم هذه المعلومات؟

قاطعتها ضاحكًا وأنا أنظر للمدير قائلاً:

- يبدو إنني أتعرض لاستجواب هنا، ولكن لا مانع من هذا.

نظرتُ في عينيها اللتين تشع بالذكاء والغموض قائلاً:

- سوف تفيدنا بالطريقة التي نراها.



obeikan.com

واستطردت في حدة مصطنعة:

- كما أن هذا التحقيق سري، ومهم جدًا.

قاطعني المدير محاولاً التخفيف من حدة الموقف قائلاً:

- يا سيد أنور، لا تؤاخذ إيمان، إنها فقط تعاني من آثار تلك الجريمة؛ فهي تعتصر ألمًا على فقدان أبنائها بشكل مريب، إن اهتمامها هذا هو اهتمام الأم، قبل أن يكون اهتمام الأستاذ، كما إننا نعاني من ضغوطات منتصف العام الدراسي، وهذه الجرائم عطلت الدراسة أكثر من مرة.

وتابع باسمًا:

- ولكننا تحت أمرك فيما تريد، ولكن بحسب الإمكانات المتاحة.

تنهد وهو ينظر للملفات من ورائنا:

- فنحن لا نحمل سجل لكل ما تطلب، إن ما تريده لا يمكن أن يكون متوفرًا في بقعة نائية مثل قريتنا!

نظرت إيمان إلى ساعتها في توتر قائلة:

- معذرة أيها السادة، إنني مضطرة للرحيل؛ للحاق بموعد حصة دراسية في جدولي المزدحم.

ثم نظرت إليّ في تعنت واضح:

- وأنا تحت أمرك أيضًا.

واستطردتُ في انفعال:

- ولكن بما لا يؤثر على نفسية الأطفال؛ فأنا أعرف نهج رجال الشرطة، لا يراعون مثل هذه المسائل!

وتابعت في انفعال أكبر:

- ولكن أظن من حقي أن أضمن سلامة الأطفال؛ فقد تأثروا بما فيه الكفاية بذلك الرعب المسيطر على القرية منذ شهور طوال.

هبت في استئذان، حتى اقتربت من الباب، ولكني قاطعتها بصيحة مفاجئة؛ فقد كنت حريصًا على أن أحطم ذلك التمثال الذي تتخفى من ورائه:

- مدام إيمان!

توقفت ناظرة للخلف قائلة:

- أفندم.

obeikan.com

بادرتها قائلاً في سماجة:

- بعد إذن السيد المدير، وإذنك بكل تأكيد، هل لي أن أحضر هذه الحصة أنا ورفيقي؟ نظرتْ إليّ في اندهاش، بينما كاد المدير أن ينفجر ضاحكًا ثم قال:

- ليس عندي مانع.

بينما قالت إيمان في تردد وتوتر برز في تشنجات وجهها:

- هل لي أن أفهم لماذا؟

كنت أشعر باهتزازات صلاح من جواري، وكأنه يتمنى أن أفلح في إقناعها.

أجبتها:

- حتى نتقرب أكثر من الأطفال، ولا نؤثر على نفسيتهم كما أردتي.

وتابعت ضاحكًا في برود:

- وأظنني سأكون أنا ورفيقي تلميذين مطيعين.

تنهدتْ في ضيق:

- حسنًا، لا مانع عندي.



obeikan.com

وحذرتْ قائلة:

- ولكن لا مجال للتحقيقات أو الفضول داخل الحصة.

قاطعتها قائلاً:

- أظنك إذا تابعت صمت رفيقي طوال الجلسة؛ سوف تدركين كم نحن نعشق فن الصمت أكثر من ممارسة الفضول!

هزت يديها في تملل:

- حسنًا، أمري للّه.

قام صلاح في تهلل طفل صغير يلتقط منها هذه اللفافات العريضة، وخرج معها إلى خارج الحجرة، في حين مكثتُ قليلاً مع الناظر، وقد وجدت في تلك اللحظات فرصة كي أشعل اللفافات التي تأجلت لحظات انتحارها بأمر تلك الجميلة المستبدة!

ظللت أنفث دخانها على عجل، وراح دخانها يختلط بعبيرها الغامض، وأثرها الباقي داخل الغرفة حتى بعد رحيلها!

●●●



obeikan.com

# خطوات على الطريق

كنت عائدًا في طريقي إلى جوار ذلك المقهى الذي قضينا فيه قليل من الوقت في الصباح الباكر، حتى ابتدرني صاحبي في مرح قائلاً:

- ما رأيك؟

نظرت إليه في فضول وأنا أُخرج علبة التبغ من جيب معطفي الطويل، ثم استدركت قائلاً:

- رأيي في ماذا؟

هز كلتا يديه إلى أعلى ثم أسفل في حركة فجائية تدل على الضيق صائحًا في صدمة:

- بالطبع أسألك في رأيك عن هذا الملاك الذي كنا في حضرته منذ دقائق ماضية! ضحكت مقهقهًا وأنا أنفث الدخان من فمي قائلاً:

- الحقيقة أنني لم أكن في حضرة ملاك واحد؛ بل كوكبة من الملائكة، إن الجلوس وسط الأطفال الصغار أمر يبعث في النفس السعادة، وإن كنت لم أحظَ بملامح تلك السعادة بينهم؛ فقد



obeikan.com

شغلني ذلك القلق البادي في ملامحهم، وذلك الشقاء المتجسد في بنيتهم النحيفة، وعيونهم المرهقة، وملابسهم المتواضعة.

قاطعني في تشنج ونحن نمضي في اتجاه السيارة قائلاً:

- إنني لا أسألك عن هذا كله؛ إنني أسألك عن إيمان، امرأة رائعة، وفتاة ملهمة، وقطعة شهية في وسط هذا المحيط المنفر أليس كذلك؟

ارتكنتُ إلى السيارة بعدما وصلنا إلى حدودها، وأخذت أستمع إلى حديثه الساذج وأنا أتلاعب بتلك اللفافة في ثغري، وكأنني أهرب من ذلك المذاق اللاذع، ثم بادرته قائلاً:

- أتعرف أن ما تقوله أمر غاية في الخطورة؟

..وضعتُ راحتي على جبهته:

- إنها ملامح هذيان واضح، هل أنت محموم أو ما شابه؟ لأنك إن لم تكن محمومًا؛ فأعراض المرض ستكون أخطر مما أتصور.

قاطعني في ذهول قائلاً:

- هل هناك ما يدعو للسخرية في ما أقوله؟!

وتابع في ضيق:

- إن التعبير عن الإعجاب أمر يستحق التقدير، لا السخرية!

قاطعته وأنا أربت على كتفه ضاحكًا:

- يا إلهي، لم أكن أعرف أنك مرهف الحس إلى هذه الدرجة، ولكن في حقيقة الأمر إنني لا أعبر عن السخرية بقدر ما أعبر عن دهشتي مما تقول.

قاطعني في انفعال:

- وما الغريب فيما قلت؟!

أجبته وأنا أتفادى شعاع الشمس الذي بات مركزًا على مقلتي في تلك الظهيرة الحارة قائلاً:

- هنالك ما هو أكثر من غريب في حديثك.

واستطردتُ في جدية:

- قل لي يا صلاح كم عمرك؟

تقبل سؤالي في برود ثم رد مسرعا:

- سوف أكمل في يونيو القادم أربعة وعشرين عامًا.

obeikan.com

قاطعته في حماس:

- حسنًا، وهل من الطبيعي أن يحب شاب عمره أربعة وعشرون عامًا، أو دعك من يحب، أن يميل لامرأة عمرها يقارب الرابعة والثلاثين عاما! وهل من الطبيعي أن يميل ذات الشاب إلى سيدة ذات تجربة زواج سابقة، إن كنت تشتهيها كأنثى فذلك أمر منطقي، وإن كان ليس مقبولاً تمامًا، ولكن أن تهواها فذلك هو ما يدعو للعجب.

أجابني في دهشة:

- إنني لا أرى أي شيء غريب فيما تقول، إنني أعشق الحالة، الفكرة.

وتابع في ضيق:

- بل إنني مندهش أن يكون هذا هو تفكير رجل مثقف مثلك، كيف تكون رجعيًا بهذه الصورة؟!

صفقتُ ضاحكًا:

- رائع، ها أنت تحاول أن تقلب الطاولة على رأسي، ولكن الأمر لا علاقة له بالرجعية، إنني أسأل مجرد أسئلة مشروعة، وأوصف حالة معروضة أمامي، والحقيقة إن شئت رأيي في هذه

المسألة، فتلك أعراض حرمان عاطفي لا أكثر ولا أقل، وإن شئت رأيي في هذه السيدة، وإن كنت لا أحب أن أصدر آراء قاطعة إلا بعد البحث والدراسة، ولكن يمكن أن أقول إنها تبدو رائعة، بريئة، معلمة مميزة، واثقة من نفسها، قوية، ناعمة، ومن المؤكد جميلة، ولكنها في حقيقة الأمر مثيرة للغموض، إنها أشبه بالتمثال الناعم الملمس، ولكن خلف كل تمثال قصة وحكاية، وصانع ماهر، قد يبدو صانع رزين وعبقري، وقد يكون مجنون إلى درجة مخيفة، بهيمي النزعة والشهوة.

قاطعني في صوت عالٍ قائلاً:

- لاااااا.

واستطرد في تعجب:

- ما قصتك مع النساء أيها الرجل؟!

أجبته في تجهم مصطنع في تنهد:

- قصتي معها! إنها من هبطت بي من جنة السماء إلى ابتلاء الأرض، وإنها من ألقت بي ثم تركتني من خلفها، أعاني من وسواس الفضول المتكرر!

نظـر إلـي يـ دهشـة بنظـرات ملؤهـا التعجـب، إلا إننـي قاطعت صمتـه بضحـكات مجلجلـة، بعدمـا استشـعرت أننـي قـد خدعتـه تمامًـا، ولـم أشـأ يـ الحقيقـة أن أتلاعـب بـه بصـورة أكبـر؛ لـذا حاولـت أن أبـدل ملامـح الحديـث، ووجـدت يـ ذلـك الرجـل المألـوف القـادم علـى حمـاره مـن بعيـد، مرتديًـا جلبابـه المميـز، وعباءتـه التـي لا تفارقـه، التـي يُخفـي بهـا معالـم بطنـه الرجراجـة، وتضاريـس عجيزتـه المكتنـزة، فبادرتـه يـ صياحـك

- انظـر خلفـك! أليـس هـذا هـو العمـدة الراقـد تحـت مظلتـه السـوداء؟

التفت صلاح من خلفه قائلاً:

- نعم.

ضحك هو الآخر قائلاً:

- ولكنه يبدو هزلي المظهر يـ تلك الصورة المتحركة!

قلت له مقهقهًا:

- يبـدو أنـه قـد هبـط لتـوه مـن السـماء هـو الآخـر عبـر تلـك المظلـة القاتمـة!



obeikan.com

اقترب العمدة بحماره، وظللت أطالع اتساع تلك الابتسامة على ثغره الواسع، بينما تسمّر الحمار أمامنا على بعد خطوات قليلة، ثم أصدر نهيقًا عاليًا في تتابع موسيقي منفر، وكأنه يشاطر ذلك الرجل المظلي ابتسامته الباردة، ترجل الرجل أمامنا بصعوبة، وهو يصيح في الحمار: «هس،هس» ثم أغلق المظلة في انحناءة أكروباتية، ثم تقدم نحونا في انشراح قائلاً:

- يا مرحب يا بهوات، منورين الناحية، وناحية الناحية.

وتابع في مداهنة سمجة:

- أنا قلت إن حضرات السادة الضباط لن يملوا ولن يكلوا حتى يخلصوا البلد من هذا المجرم الأثيم.

قاطعه صلاح باسماً:

- متشكرين يا جناب العمدة، لكن هل هو مجرم أم ذئب؟! لقد حيرتنا أقوالكم المتناقضة.

أجاب العمدة في تردد وهو يحك في رأسه:

- الاتنين واحد، إنّ كان مجرم ولا ذئب فعملية القتل واحدة.

قاطعته في تفلسف:

- ولكنهما ليسا بواحد يا حكيم الفلاحين؛ فالذئب يقتل لكي يأكل، أما المجرم فيقتل لأسباب أخرى.

رد العمدة ضاحكًا:

- يجوز، لكن البني آدمين ممكن يقتلوا من أجل الطعام.

قاطعته في تعجب من تقلبه بين موجات الدهاء والسذاجة:

- ربما تكون محقًا؛ فالجوع غريزة حاكمة في سلوك الحيوان، ولكن الإنسان تحكمه مجموعة متشابكة من الغرائز: الشهوة، والجوع، وحب المال، والانتقام.

وتابعتُ متحاذقًا:

- ولكن في رأيك بعد هذا السرد الشائن، أيهما يستحق لقب الحيوان؟!

قال العمدة مقهقهًا:

- يا سعادة الباشا، الحيوان هايفضل حيوان.

وتابع في صوفية مصطنعة:

- أما البشر أمامهم باب التوبة، والتكفير عن الذنب.

قاطعته في حماس:

- كأنك تحدثني عن بعد من أبعاد فعل التطهير.

وأشرتُ بيدي نحوه:

- أرجو أن تعذرني إن كان في قولي بعض من التنظير أو التعقيد، ولكني أثق في اطلاعك وحسن استماعك.

أومأ لي برأسه في إيجاب منشرح، واستطردتُ قائلاً:

- ولكن للتطهير أكثر من وجه؛ هنالك التطهير النفسي أو الروحي، وهذا ربما ما تتحدث عنه، أن يفلت المجرم من العقاب، ولكن لا يستطيع الفكاك من سطوة الضمير، ووغز أشواكه المضنية، وفي هذا قد تكون التوبة هي العلاج من هذا كله؛ فقد يعترف بجرمه طلبًا للخلاص، وقد يتوب سرًا أملاً في مغفرة مؤجلة، وهنالك التطهير البدني وهي إنزال العقوبة على الشخص الجاني، بسجن أو حبس، بقصاص عادل؛ كي يزيل آثار عدوانٍ حَدَث.

وتابعت وأنا غارقًا في نوبة من التأمل:

- ولعل هذا هو الفارق بين الحيوان والإنسان؛ إن الحيوان يتقن لغة العدوان، بل إنه بالنسبة له أمر غريزي وفطري، فنحن



obeikan.com

لا نلوم الأسد إذا ما أكل شخصًا، بل نلوم الشخص أنه اقترب منه، ولم يدرك خطورته، أي إننا في حقيقة الأمر نلوم عقل هذا الشخص، أما العدوان في عالم البشر أمر من الواجب أن يكون استثنائي؛ فهنالك العقل، والضمير، وموجبات الروح والفطرة؛ ولهذا إن حدث العدوان كان لا بد من العقاب.

نظرت إلى العمدة وصلاح، وقد راحا يهزان رأسيهما في بلاهة؛ وكأنهما لا يفقهان شيئًا مما أقول! بادرني العمدة وكأنه يحاول أن يغير دفة الحديث:

- هل تعتقد أن هنالك أمل في القبض على هذا المجرم؟ فيبدو أنه بارع فيما يفعل!

قاطعه نهيق الحمار مجددًا، بينما انفجرت ضاحكًا من ذلك التناسق بينهما، ثم بادرته قائلاً وأنا أنظر في ساعتي:

- لا تقلق.

وتابعت بعد لحظة من الصمت:

- ولكن قل لي: هل يستطيع حمارك أن يعود إلى الدار بمفرده؟

obeikan.com

تعجب العمدة من السؤال ثم قال في تفاخر:

- بكل تأكيد، كل الحمير يتقنون ذلك.

ضحكت مجددًا قائلاً:

- حسنًا؛ لهذا سوف نقبض على الجاني بكل تأكيد.

رد العمدة مندهشًا:

- وما علاقة هذا بذاك؟!

أجبته:

- العلاقة واضحة تمامًا، فكما يعود الحمار إلى الدار دائمًا، يعود المجرم إلى مسرح جريمته بالسياق الجامد والتواتر المعتاد ذاتهما؛ فالحمار كما يحمل على ظهره أحمال البشر، المجرم أيضًا يحمل على ظهره عبء جريمته التي يجاهد دائمًا للتخلص من أثقالها بارتكاب الأخطاء أحيانًا، أو بارتكاب مزيد من الجرائم في أحيان أخرى؛ وهذا ما يجعل المهمة دائمًا سهلة.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

# على الحافة

مر أسبوع كامل على تلك الرحلة المدرسية التي كان الهدف منها النظر في عيون الأبرياء؛ لعلي أستطيع أن أرى في مراياها صور مطبوعة للجناة، أرى فيها ظل الشيطان الذي يتأرجح في المساء، ويترنح في الطرقات، يمارس أسوء عاداته القديمة؛ يمارس لعبة القتل، وسفك الدماء.

لكني في خلال ذلك الأسبوع المنصرم، لم أرَ أثرًا لذلك الشيطان، وكأنه مجرم عتي يجيد لعبة التخفي، ويتقن صنع العقدة بين الخيوط المتشابكة، لاعب ماهر، يتفنن في إظهار الورقات المناسبة، كما يتقن إخفاءها بالمنطق ذاته.

كنت أشعر بذلك الشعور حقًا، بأنني أجلس على الطاولة، ممسكًا بورقات الكوتشينة ودخان اللفافة يتصاعد نحو عيناي؛ فيجبرني أن أغلق إحداهما، في حين أتطلع بالأخرى إلى تلك الرموز المتشابكة على صفحة الأوراق؛ أرقام، وصور لبشر، وفتاة، وفارس، وملك، في حين يجلس هو الآخر على الحافة الأخرى، منتشيًا بتلك المكاسب التي أحرزها في الجولات السابقة، حيث تتراكم الماركات الدائرية من أمامه بمختلف ألوانها، وكأنها جثث متراصة في مقبرة جماعية.



obeikan.com

كنت أشعر أنني متردد للغاية في أن ألقي بالأوراق من أمامه، وأن أكشف عن حجم قوتي، فعامل المفاجأة ما زال قائمًا.

كنت أسير في تلك الليلة في طرقات القرية، أسير في المساء البارد، والساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، الناس نيامًا بفعل الطبيعة، وبدافع التعب، وهربًا من البرودة.

الهدوء من حولي يشبه صمت القبور، العالم مظلم تمامًا، سوى من لمعان القمر على صفحة المصارف الضيقة، أو انعكاس المصابيح الصفراء المعلقة من أمام الأبواب في ندرة.

لا أعرف ما الذي دفعني في تلك الليلة أن أنسل من وسط الرجال بداخل القسم، وأن أخرج إلى الهواء المنعش! توقفت إلى جوار سيارتي أدخن لفافة محترقة، كانت تختلط موجاتها المحترقة بحطب الأفكار المحترق في رأسي.

إنها لحظات صعبة أن تواجه نفسك بخيبة الأمل، إنها لحظات خانقة أن تضبط نفسك متلبسًا بجرم الإحباط المقيت، ولكنها كانت حالتي في تلك الليلة.

كنت أنفث الدخان من صدري، وكأنني أحاول أن أبدد معالم الضيق من صدري، فقد مرت أيام ليست بقليلة، ومع هذا لم أمسك في يدي سوى السراب؛ الطفل القتيل، زوجة الأب، والأب

المسافر، العم الصامت، العمدة السعيد، والمدرسة الغامضة، التحقيقات والاستجوابات لم تسفر عن شيء جديد.

كل الآمال تبددت، ولم تبقَ أمامي سوى بعض الخيوط البالية؛ فالشكوك تتناثر في كل اتجاه بدون مبرر واضح، إنها من المرات القليلة التي أشعر فيها أنني لست واثقا بشأن رأي ما، ورغم اعتمادي على التحليل المنطقي، والدلائل، والقرائن... إلخ، إلا أنني كنت دائمًا أتبع حدسي، ولكن هذه المرة ضاعت معالم الحدس، ولم يبقَ في صدري سوى وجع الشك.

ومع هذا كنت أنتظر من ذلك المجذوب شيئًا ما، وما زلت أنتظر تقرير الطب الشرعي، ربما يحمل شيئا جديدًا، كانت هنالك بعض من بقع الضوء على صفحة الظلام الراكدة.

ألقيت ببقايا اللفافة المحترقة، وركبت سيارتي وانطلقت بها صوب القرية وحدي في هذا الظلام، كنت أريد أن أعايش شعور المجرم وهو يمضي في الطرقات ليلاً ترى كيف يحدد نوع الضحية؟ وكيف يختار الليلة المناسبة؟ هل يدقق في الأوراق في يده ثم يلقي بإحداها في ثقة نحو الطاولة، ثم يمد كلتا يديه جامعًا كل الغنائم في نشوة وسعادة، هل هو قاتل متسلسل حقًا؟! هل يتبع نمطًا معينًا في ارتكاب جرائمه؟ أم أنه مجرد ذئب جائع استوطن

تلك المنطقة كما استوطنت فيها من قبل ذئاب الفقر والجهل والخرافة؟!

حينما وصلت إلى حدود القرية، كانت غارقة في النوم، وغارقة أيضًا في الظلام؛ إنه الوقت المثالي لفعل «النداهة» هل هي حقا كذلك؟ روح شريرة تنادي على البشر، وتنتزعهم من أحلامهم الواسعة لتلقي بهم في بئر مظلم عامر بالكوابيس ومذاق الاختناق؟! ربما، كنت أتسكع بخطوات وئيدة، وقد أحكمت إغلاق المعطف الجلدي الطويل حول جسدي، وثبتت تلك الكوفية الصوفية حول رقبتي؛ إن الشتاء حمل مزعج، ولكني آخر إنسان في العالم يبحث عن نوبة جديدة من الحُمّى؛ فكفاني ما لقيته في الأيام الماضية من الوجع.

ولا أعرف لماذا تعمدت ان أركن سيارتي إلى جوار ذلك المقهى الصباحي، في أول القرية من جهة المدينة، وقررت أن أقطعها بالطول سيرًا على الأقدام؛ ربما هي طبيعة رجل الأمن.

كنت أريد أن أتحسس شعور الجاني كما ذكرت، وأشم رائحة الدم إن أمكنني ذلك. ظللت أدور في الطرقات كما المجنون، سائرًا وحدي في الفراغ على يميني الشك، وعلى يساري الوحدة، وكل هذا في نفق من الظلمة.



obeikan.com

كنت أمضي في تعجب شديد، أين البشر؟ هل أصابهم الموت فجأة؟! وأين حراس الليل؟ إن هنالك قصور أمني شديد! خاصة في قرية تشهد ذلك السيل من الحوادث المفجعة والغامضة! هل يجلس السكان الآن بانتظار الموت؟ هل يعتريهم الخوف والقلق؟ أم أن سطوة النوم أكبر وأعمق؟!

كنت أمضي وأنا أرتشف رحيق اللفافات الواحدة تلو الأخرى، وقد أصابني اليأس تمامًا، أصبح مجمل تفكيري منصبًا على حدوث المعجزة، فعندما تُعجزنا الوسائل ننظر إلى السماء، ونبحث عن المعجزات، نعم، كنت أتخيل أنني سوف أتعثر في ذلك الجاني على بعد خطوات قليلة، يحمل طفلاً على كتفه وعلامات الريبة على وجهه.

ظللت أمضي، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، حتى استوقفتني ملامح ذلك البيت النائي على أطراف القرية من الجهة الأخرى، إنه يرقد وحيدًا في هدوء، وهو الأقرب إلى طريق الصحراء من الجهة الأخرى.

تسمرت قليلاً أمامه، وأنا أردد في نفسي: ترى من ذلك الذي اختار أن يعيش بعيدًا إلى هذا الحد.

obeikan.com

توقفت أمام ذلك المنزل، لا أعرف ماذا اعتراني حينها، كان الأمر أشبه برعشة مفاجئة، برعدة سببتها دفقات الهواء البارد التي اخترقت بمهارة مسام ذلك المعطف المحكم.

اللعنة! كم هي موجعة تلك الرياح، كان الأمر أشبه بسوط من ثلج انهال على ظهري في لحظة من الغفلة، توقفت وكأنني أحاول أن أتماسك.

أخذت أنظر من حولي، يمينًا ويسارًا، ذلك الطريق الممتد الخالي من الضوء سوى من مصباح بعيد، على يميني امتداد الطريق إلى قلب القرية، وعلى يساري امتداده نحو الفراغ، ومن أمامي ذلك المنزل على بعد عدة أمتار قليلة، ومن خلفي فراغ يلتحم ببدايات القرية مجددًا.

أشعلت لفافة وكأنني أقاوم روح التلصص التي اعترتني، إن في ملامح ذلك المنزل أمر مريب، هل قلت سابقًا: إن المنازل تشبه إلى حد بعيد سكانها؟! كان منزلاً من طابقين، من حوله سور أسمنتي خفيض، ولكن يعلوها سياج خشبي مدبب من أعلاه، أضاف إلى طوله الكثير، من خلفه كانت ترقد حديقة واسعة، بها أشجار عالية، وكثيفة، ومتشابكة، تتدلى فروعها وأغصانها في تمايل نحو ذلك السور، في منتصف السور كانت ترقد بوابة حديدية ذات شكل هندسي مميز، من خلف هذا التيه كان يرقد

بناء المنزل الغامض، الذي تتبدى أنواره من خلف ذلك التشابك، كخيوط من الضوء المشتت.

لم يشفِ فضولي ذلك التأمل المبدئي، نظرت من حولي مجددًا، وكأنني أستلهم الشجاعة، ثم مضيت بخطوات أكثر نحو ذلك المنزل، صرت في مواجهته تقريبًا، ظللت أدور حول السور؛ لعلي أرى المزيد، رأيت أرجوحة ترقد في الحديقة عريضة خفيضة، كانت تهتز في أزيز مكتوم.

ظللت أدور حول المنزل، حتى وقفت أمام تلك البوابة المميزة، لفت نظري تلك اللافتة المعدنية التي علقت على جانبها في مكان عالٍ، كُتب عليها: منزل المهندس/ إبراهيم فوزي، زاد الاسم من شغفي وفضولي!

نظرت في ساعتي فوجدتها تقترب من الثانية عشرة؛ إنه وقت متأخر جدًا، ولكني اندفعت بشكل لافت، وأخذت أطرق على البوابة بيدي، وبينما أنا منشغل في الطرق حتى شعرت بوقع أقدام تهرول من جهة اليسار، من ذاك الغريب المهرول؟! وما هي إلا لحظات حتى انشق الظلام، وأبصرت ذلك الشاب بجلبابه المميز، وجسده النحيل، كان ممسكًا بعصاة خشبية، ويركض كما المجنون صوب أحشاء القرية.

obeikan.com

مـر مـن إلـى جـواري كالسـهم، وهـو يهـذي بكلمـات غيـر مفهومـة، إنـه المجـذوب!

أخـذت أصيـح عليـه بالانتظـار، إلا أنـه ذاب سـريعًا في جـوف القريـة، قـررت أن ألحقـه إلا أننـي سـمعت أزيـز البوابـة مـن خلفـي، وكأنهـا فتحـت دون انتظـار!

●●●

obeikan.com

# صانع التماثيل

ظهر أمامي خلف تلك البوابة الحديدية، رجل غامض الملامح أو ربما لم أتبين ملامحها بشكل جيد في مثل هذا الظلام، كان المصباح يشع نورًا من خلفه، ذلك الضوء القادم من المنزل الراقد على بعد أمتار قليلة جهة الداخل.

كان رجل متوسط الطول، عريض البنية والوجه، ذو أنف أفطس مميز يبرز بين خديه الممتلئين، ضيق العينين، وخفيف الحاجبين، أصلع الرأس، والتي كانت تلمع من أثر ذلك الضوء القادم من ورائها.

كان يرتدي رداءًا منزليًا ثقيل (روب)، وإن كان يبرز من أسفله بلوفر صوفي، وقميص قطني ذو ياقة مميزة، وبنطال أسود، وحذاء أسود يسكن في قدميه.

كان يبدو كشخص يتأهب للخروج! أو قادم لتوه من الخارج! فقد كان من الواضح أنه قد ارتدى ذلك (الروب) على عجل؛ لكي يستطلع أمر غريب يطرق الأبواب.

ظل الرجل واقفًا في صمت وهدوء، وهو يسدد النظرات إليّ وكأنه يحاول أن يجمع شتات الصور من رأسه، كانت نظراته

مفعمة بالتشكك والريبة؛ حتى أيقن بعد لحظات أنه لا يعرف ملامح الطارق، فبادرني بسؤال كشف الستار عن ملامح صوته الرخيم الهادئ:

- من أنت؟ وماذا تريد في هذه الساعة المتأخرة؟!

كان يبدو مستنكرًا لقدومي إلى محرابه البعيد، استجمعت أفكاري سريعًا بعدما قطعها ذلك المجذوب بظهوره المفاجئ، كان عليّ أن أقدم مبررًا مقبولاً لهذا الرجل المريب،

وبالطبع ليس هناك أفضل من تصنع السذاجة، والتعلل بعذر الغرباء، وعابري السبيل في إيقاظ البشر!

أجبته باسمًا في تودد:

- إنني آسف جدًا على إزعاجك في مثل هذا الوقت المتأخر، ولكني لست من أهل هذه القرية، ويبدو أنني قد ضللت الطريق، ووجدت في بابك فرصة لكي أعيد اكتشاف الخريطة من جديد؛ فهل يمكنك أن تدلني عن معالم الطريق حتى أصل إلى أول القرية؟

نظر إليّ في هدوء ممزوج بالشك، ثم أجابني بقدر من اللامبالاة، وهو يشير جهة اليمين:

obeikan.com

- يمكنك أن تسلك هذا الطريق، وتسير مع تعريجاته حتى تصل إلى مرادك.

عاد للخلف وهَمّ بغلق البوابة في مسلك يثير الشك، لكني استوقفته صائحًا:

- مهلاً، مهلاً يا سيدي، هل أنت المهندس/ إبراهيم فوزي؟

نظر إليّ بقدر من التعجب الذي يصل إلى حد الازدراء، ثم بادرني في ضيق وتأفف قائلاً:

- هل أنت غريب ضل الطريق؟ أم إنك فضولي يمارس سماجاته على البشر؟ أظن أن هذا أمر لا يعنيك.

ضحكت في برود قائلاً:

- على العكس، إنه أمر يعنيني تمامًا.

وتابعت في حدة:

- إنني الرائد/ أنور النواوي، من مصلحة الأمن العام، ولقائي بك اليوم فرصة مناسبة للحديث عن بعض الأمور العالقة والغامضة.

obeikan.com

تنهد الرجل في انفعال، ثم صاح في غضب مكتوم قائلاً:

- انظر يا حضرة الضابط، إنني لست فلاحًا ساذجًا، أو رجلاً جاهلاً؛ إنني رجل متعلم، ومواطن يعرف حقوقه تمامًا، ولن تفلح معي تلك الوسائل التي يتبعها رجال الشرطة في بلادنا، نظرية زوار الفجر، ليست بنظرية قابلة للتطبيق هنا، إن كان لديك استدعاء رسمي فلتبرزه أمامي.

وتابع وهو يشير بيديه في تشنج:

- وقبله بالطبع ما يدل على هويتك أنت أيضًا، وإن لم يكن معك هذا؛ فلتذهب إلى حال سبيلك، واتركني أعود إلى منزلي.

قاطعته وكأنني أستمهله ألا يغلق الباب عائدًا إلى الداخل قائلاً في تأدب:

- سيدي، إنني أعتذر بشدة أنني أقلقت راحتك في مثل هذا الوقت المتأخر، وتأكد أنني لست هنا بصفتي الرسمية؛ فكما قلت لك: إنني بالفعل قد ضللت طريقي، وأشكرك على التفضل عليّ بالمساعدة.

واستطردت ضاحكًا بشدة:

- وكما تراني أمامك، لم آتِ إلى هنا مصحوبًا بقوة من رجال الشرطة، ومن المؤكد أنني زائر.

تابعت وأنا مستمرًا في الضحك:

- ولكني لست من زوار الفجر، ولا حتى النهار.

قلت مازحًا وأنا أنظر في ساعتي:

- فالوقت لم يتعدَ حدود منتصف الليل.

استمر النقاش بيني وبين الرجل المتعنت لمدة دقائق؛ كان يحاول بشتى السبل أن يدفعني للرحيل، ولكني ازددت إصرارًا في أن أكتشف المزيد عن هذا الرجل؛ فقد أصبح اللغز أكثر تشويقًا حينما رأيته، إنه يبدو رافضًا تمامًا لمجرد النقاش، كان أشبه بمن يحترق خارج حدود محرابه، وتلك معالم من أصابتهم لعنة الوحدة ومرض العزلة!

كان أمامي أشبه (بالفزاعة) التي يغرسها الفلاح في الحقل، لكي يخيف بها العصافير، ويدفعها للفرار من أمامه، ترى ما الذي حَوّلَ ذلك الرجل إلى تلك الفزاعة الوحيدة، المغروسة في حقل الحياة في صمت وشقاء؟!

كما لاحظت أنه يقف بصورة ليست بالمستوية، وكأنه يعاني من شيء ما في جسده، وتأكدتُ لي تلك الملاحظة حينما لاحظت ذلك العرج المتوسط في خطواته، هل هذا هو السبب إذن؟ العاهة

هـي مـن دفعتـه لكـي يكـون وحيـدًا؟ وأن يكـره البشـر أو يبتعـد عنهـم! كمـا سـمعت مـن العمـدة، وكمـا قـرأت عنـه في أوراق التحريـات.

بادرته في إلحاح وأنا أحك كلتا راحتي من أثر البرودة قائلاً:

- إن كل مـا أطمـع فيـه أن أجـري معـك حـوار ودي حـول مـا يجـري في قريتكم؛ فـلا بـد أن رؤيـة رجـل مثقـف مثلـك، سـوف تعيننـي في كشـف سـر تلـك اللعنـة التـي أصابـت هـذا المـكان.

واستطردت وأنا أتصنع الشعور بالبرد:

- ولكـن أرجـو أن نكمـل هـذا الحديـث في الداخـل بعيـدًا عـن ملامـح البـرد القـارس هنـا!

اسـتجاب لـي الرجـل في ملـل وضيـق، وكأنـه يحـاول أن يتخلـص مـن ذلـك الزائـر اللـزج قائـلاً:

- حسـنًا، يمكننـي أن أمنحـك ربـع سـاعة فقـط، فلـدي عمـل لا بـد أن أنجـزه.

أشار لي وهو يتراجع إلى الخلف مفسحًا لي الطريق قائلاً:

- تفضل.

دلفت إلى الداخل وأنا أتحرق شوقًا لمعرفة المزيد عن هذا الرجل، وهذا المكان، كان المكان مخيفًا إلى حد بعيد، شعرت بقدر كبير من الانقباض وأنا أخطو للداخل ولكن عقلي كان مشغولاً بما قاله: ماهو ذلك العمل الملح الذي يتوجب عليه أن يؤديه في مثل هذا الوقت المتأخر؟! إن هذا الرجل مريبًا جدًا مثل مسكنه تمامًا.

كانت الحديقة واسعة من الداخل، في منتصفها طريق ترابي يؤدي إلى المنزل، الدور الأول يعلو عن الأرض بدرجات قليلة، فرنده تحيط بالمنزل بشكل دائري، سار الرجل أمامي هذه المرة بعدما أغلق البوابة في عرج واضح؛ فيبدو أن طرقاتي المتعجلة جعلته يخلف العكاز من ورائه، فقد ألفيت تلك العصاة الخشبية المميزة العريضة، المعقوفة من أعلاها كمنقار طائر مفترس، ألفيتها مسنودة إلى جوار السلم المؤدي إلى الطابق الأعلى.

ظللت وراءه في صمت، وأنا أطالع حركاته الوئيدة،وخطواته المتعسرة في الصعود على درجات السلم، كان بداخلي شفقة نحو مصابه، وبداخلي شك أكبر في خطواته. لمعت في رأسي فكرة شريرة بأنه من الممكن أن يكون هذا المكان هو قلعة ذلك السادي الذي يمارس القتل في الظلام، وربما يكون هذا العرج نوع من الخدعة تمثيلية متقنة! لكي يبعد الشكوك عنه، إن ذلك الهدوء، وتلك العزلة، وذاك المنهج المتشدد مع البشر أمرًا مريبًا حقا .

وصلنا إلى تلك البرندة التي تقبع على حدود الطابق الأول، كان هنالك بابين؛ باب في مواجهة السلم تمامًا، توقعت أنه يؤدي إلى بهو المنزل وبقية أركانه، وباب آخر في نهاية الطريق إلى اليمين قليلاً، يؤدي إلى غرفة واحدة.

سار بي بالفعل جهة ذلك الباب المغلق، دفعه بهدوء مصاحب لأزيز منفر، فانكشفت معالم تلك الغرفة أمامي، كانت خالية إلا من بعض المقاعد؛ طاولة خشبية عريضة يرقد عليها تمثال من الصلصال لم تكتمل ملامحه بعد.

●●●

obeikan.com

# اللّغم

تقدمت إلى الداخل من وراء ذلك الرجل الأعرج، والشكوك تكاد تنهش مخيلتي، في ضوء تلك الحجرة الأصفر الشاحب استطعت أن أتبين ملامحه بشكل أكبر، كانت ملامح الرجل تدل على أنه مقبل على خريف العمر، تلك التجاعيد التي برزت على جبهته، وذلك الانجذاب المقتضب ما بين حاجبيه، أضافوا إلى معالم وجهه المزيد من السنوات المصطنعة، كان أشبه بمن هو أقرب إلى الخامسة والخمسين، رغم أن حقيقة عمره كما علمت تنقص عن هذا المعدل بنحو عشر سنوات.

إن معالم وجهه رُسمت بريشة من الحزن، وربما الغضب، والأزمة دائمًا تكمن في الغضب المكبوت، فتلك هي حالة القنبلة؛ إن القنبلة دائمًا لا تنتحر وحدها، ولا تموت في صمت، بل إنها تودع الدنيا بصورة صاخبة، وبصوت عالٍ!

كانت تلك الأفكار تعبث بمخيلتي في تحليل بائس لما أراه، أو أتلمسه؛ فالحقيقة إنني كنت ضالاً كما ذكرت له، ضللت طريقي في دروب هذه القضية حتى الآن؛ فالمعلومات شحيحة للغاية، والبشر في هذه القرية يلُفهم قدر من الصمت والغموض، يشبه معالم ذلك التمثال الطيني الراقد على تلك الطاولة، وكأنه جثة يعاد تشريحها من جديد!

جلست على أحد المقاعد النظيفة نسبيًا في نهاية الحجرة؛ فكل المقاعد متسخة بعوالق تلك المواد الطينية، آثار بصمات نحات هنا، وبصمات فنان هناك، والغريب في الأمر أن الرجل لم يعرني اهتمامه، بل تجاهلني بمزيد من الصمت؛ حيث وقف على بعد خطوات من ذلك التمثال، يتفحصه كعالم ينظر إلى قطعة زجاجية ترقد تحت المجهر، ثم خلف رداءه المنزلي، وعلقه على ذلك المشجب المعلق على أحد حوائط تلك الحجرة العجيبة، والتقط من عليه معطفًا أبيض يشبه ملابس الأطباء.

كدت أطير فرحًا حينما شككت أنه قد يكون طبيبًا؛ إلا إنني تذكرت أنه يمتهن فن وحرفة الهندسة.

ارتدى المعطف الأبيض، ثم مد يديه جهة ذلك التمثال البازغ يتحسسه برقة، كما يتحسس العاشق المحترف ملمس امرأة جميلة! كانت القطعة الطينية تلين في يديه كما تلين الغانية من مداعبة ذلك العاشق، لكن المعادلة هنا مختلفة إلى حد بعيد؛ فالعاشق يشعل الرغبة الكامنة في قلب تلك الأنثى، يأجج شهوة خامدة تحت الرماد، أما صانع التماثيل، يمنح الجماد قطعة من روحه، يعطيها قبلة الحياة، ويزرع فيها شعلة من شهوته المكبوتة!

ترى هل هذا هو ما يفعله حقًا، إن كان الأمر كذلك؛ فذلك الرجل مستنزف بشكل كبير، فكيف له أن يجدد الرغبة مع كل عمل جديد؟! كيف يعيد مخزون مشاعره المتضاربة أو المشتعلة؟! هنالك طريقتين لا ثالث لهما؛ عن طريق الحب، أو طريق الكراهية، والأخيرة قد تؤدي إلى الجريمة حتمًا.

جلست من خلفه أتأمل تلك الأواني الفخارية المتراصة على الأرض من جوار الحوائط، كنت أنتظر منه المبادرة بالحديث لكنه لم يفعل! أعطاني ظهره، ثم انهمك في ذلك الجنون الفني، هل مل ذلك الرجل صنف البشر فقرر أن يخترع لنفسه عالمًا آخر ممتلئ بالجمادات التي يسهل التحكم فيها، كما يسهل الحديث إليها؟!

إن الميزة الكبرى أنها تسمعك في صمت، ولا تمل من حديثك أبدًا، حتى وإن كان لغوًا كاملاً، بل إن الميزة الكبرى أنها لا تسمع على الإطلاق؛ فإن ساد الصمت عالمًا فمن المحتم أنه سيسوده الصمم الكامل!

تلك كانت ملامح ذلك الكهل الوحيد، وهذه هي ملامح عالمه الذي كان ماثلاً أمامي، بل إنني للحظات قليلة قد توهمت من زحام الأفكار في رأسي، أن هذا الرجل ما هو إلا صنيعة ذلك النحات، وأنه مجرد تمثال مثل رفاقه المنتشرين في هذا المنزل!

ولكن بصورة ما، بلعنة سارحة في هذا المكان، تبادل الصانع والتمثال الأدوار، فتحول الأول إلى جماد صلب، واستدار الثاني إلى ذلك الرجل المعزول!

فكرة غريبة حقًا، بل إنها فكرة مجنونة وشريرة، هل تلك العاهة البادية في ساقه هي عمل لم يستطع الصانع إكماله بدافع تلك اللعنة؟! قطعت حبل الأفكار المتدفقة على عقلي في جنوح، وكأنها أسراب من جياد برية يستعصي على المرء ترويضها!

لمعت في عقلي فكرة مجنونة أخيرة، ولا أعرف ما دهاني لكي أستسلم لوسواساتها؛ فذلك الرجل المتشنج في صمت، المشحون في كتمان، يشبه اللغم الخفي، الغارق تحت موجات الرمال، ولا يمكن أن يفصح عن ملامحه، إلا إذا داسه المرء بالأقدام!

اندفعت الكلمات من ثغري كما طلقات الرصاص، سألته صائحًا:

- قل لي يا باشمهندس: هل أنت مصاب بالعرج من زمن بعيد؟ أم أن هذه العاهة من توابع إصابة حديثة؟

التفت إليّ الرجل وقد طفحت الدماء في توارد إلى ملامحه؛ فحولت قسمات وجهه إلى حمرة مخيفة، كما اتسعت فتحتي منخاره في اضطراب من شدة الغضب، أحسست لوهلة أنه سوف

ينقض على عنقي بإحدى تلك الأدوات الحادة، وربما فعل دون تردد، إذا ما كنت أمتهن أي مهنة أخرى بخلاف العمل الشرطي، لكنه اقترب مني في تباطؤ من أثر ذلك العرج في ساقه، ممتزجًا بقدر من التعمد من جهته؛ فقد شعرت أنه يمنح نفسه مزيدًا من الوقت؛ كي يتمالك نفسه من أثر الانفعال.

وهذا ما شعرت به في خطواته البطيئة التي قطعها حتى وصل إلى حيث مقعدي، ثم انفجر ضاحكًا في هيستريا قائلاً:

- يا لوقاحتك أيها الغريب!

ثم نظر إلى أسفل، وقد صوب نظراته في مقلتي، مسترسلاً:

- أتظن أنك ذكي، حاذق للغاية، وأنك قد جئت بما هو جديد؟! يا حضرة الضابط أنت هنا في قلب الريف البائس، وسكانه ينتجون أطنانًا من الفضول والسماجة كل يوم، تلك السماجة التي تماثل في قبحها روث البهائم العالق في الطرقات الترابية من حولنا شمالاً وجنوبًا، وأنت إلى جوارهم لا شيء في هذا المضمار؛ فمهما حاولت أن تكون سمجًا، أو فضولياً، أو وقحًا، لن تصل إلى حدود ما لقيته من هؤلاء البشر على مدار الأعوام السابقة.



obeikan.com

وقفت في برود ثم حدثته مقاطعًا:

- إن كنت تكره هؤلاء البشر إلى هذا الحد! لماذا تركت كل شيء من ورائك، وجئت لتسكن هذه البقعة تحديدًا كهل وحيد؟!

وتابعت محاولاً الاستمرار في استفزازه:

- ذو عاهة، هل ترى أن هذا الأمر شيء عادي؟ اعذرني في فضولي وسماجتي، ولكن هنالك ذئب طليق في هذه اللحظات، يغتال براءة أطفال صغار، دون رحمة أو هوادة، وفي مثل هذه الظروف لا بد للمرء أن يعبر حدود التأدب، وأن يمارس أكبر قدر من التجرؤ؛ لمنع هذا القاتل الطليق من أن يمارس هواية باتت تتحكم فيه إلى درجة الجنون!

تراجع فوزي خطوتين للوراء، ثم أشار بيده نحو بوابة المنزل، قائلاً في ضيق محاولاً أن يرد لي الاستفزاز بالاستفزاز، والإهانة بمثلها:

- أعتقد أن الوقت بات متأخرًا الآن، ولست مستعدًا لتحمل عبء ضيف ثقيل أكثر من ذلك؛ فلتتفضل أيها الضابط من حيث أتيت، فبالخارج العديد من الأمور المثيرة التي يمكنك أن تتلصص حولها، وتشبع فيها قدراتك وسماجتك أيضًا، وأن تطاردها ككلاب المساء الضالة.

ابتسمت في تصنع قائلاً:

- مثيرة إلى أية درجة أيها الفنان؟ إلى درجة الهوس أم الجريمة أم القتل؟

واستطردت ملوحًا له بأناملي:

- على أي حال، سوف أغادر الآن، ولكن سوف نلتقي قريبًا، قريبًا جدًا، ولتمارس هوايتك في صناعة التماثيل حتى ذلك الحين، ولكن إياك أن تتحكم فيك إلى درجة الجنون.

خرجت من منزله في تثاقل، كانت الأجواء أكثر برودة بالخارج، ولكني لم أشعر بوطأتها؛ فقد كان جسدي مفعمًا بوهج الانفعال إلى درجة فجرت بعضًا من حبات العرق على جبهتي في مثل هذا الليل القارس البرودة!

مضيت خطوات قليلة في طريقي حيث أهملت سيارتي، ولكني لمحت على البعد ذلك المجذوب الشقي، كان واقفًا إلى جانب أحد المنازل البعيدة إلى حد ما، اللعنة على هذا المجذوب!

انطلقت صوبه مهرولاً، إلا أنه وما أن شعر بقربي؛ حتى أطلق لساقيه العنان، وكنت من خلفه أعدو بأقصى سرعة صائحًا: يا تهامي، تهامي!

●●●

obeikan.com

# الاشتعال

كانت أحداث اليوم التالي في قمة الغرابة، وفي ذروة الاشتعال؛ فكما يقولون المصائب لا تأتي فرادى؛ ففي تلك الليلة بعدما فر ذلك المجذوب من قبضة يدي، وهو يهذي ببعض الأزجال المشفرة، التي تنطق بأسماء وأحداث مبهمة، كانت حالتي النفسية في غاية السوء؛ فرغم أنني قطعت مسافة كبيرة في العدو من خلفه إلا إنني حينما وصلت بيدي على أعتاب ملابسه الرثة في ذلك المساء على خلاف لقائنا الأول، كان أثر الحُمّى وبرودة الجو قد حفرت في أوصالي ملامح الإنهاك،

وبوادر ارتعاشة متواصلة من أثر المرض.

أمسكت به دونما إحكام مني على ملابسه، ولا أعرف حتى هذه اللحظة إن كان قد أفلت مني من أثر الإنهاك العارم الذي أصابني، أم أن بداخلي كانت هنالك رغبة دفينة في ألا أقسو عليه؟!

كنت أرغب في أن أدير حديثًا معه، دون تهديد أو وعيد، ظللت مدة طويلة بعدما فر من أمامي، أتسكع في تثاقل في طرقات تلك القرية الميتة مساءً، الناس كلهم نيام من أثر مشقة النهار، أو ربما هم أيضًا كانوا يفرون إلى مخابئهم في المساء هربًا من أشباح الشر التي تعبث في طرقات قريتهم في كل لحظة!

هل هذا الأمر متصور حقًا؟! أن تكون هنالك عصابة خفية، حكومة سوداء تحكم هذه البقعة النائية بدستور آخر، وقانون مغاير لما هو ساري ومتعارف عليه!

أكملت جولتي مترنحًا من قسوة الإعياء، كما تلك الأفكار والهواجس المترنحة في عقلي!

كان بداخلي أيضًا بركان من الغضب والضيق من تلك القضية المعقدة، ومن سلوك كل البشر من حولي، وربما هذا هو ما عجل بالانفجار التالي في الصباح الذي باتت تتهادى ملامحه إلى السماء وأنا على أعتاب القسم في نهاية تلك الليلة الغريبة.

لم يكن الصباح بأحسن حالاً من الليلة الماضية؛ فبعدما قضيت ساعات قليلة راقدًا في إعياء على تلك الأريكة القاتلة بين جنبات مكتب الرائد/ عصام من أثر المرض؛ والذي ربما جعلني أتساءل وأنا أتقلب على حيزها الضيق في صعوبة عن عدد المجرمين الذين يفلتون بجرائمهم دون عقاب؛ فقد كانت هذه الأريكة إحدى هؤلاء المجرمين دون شك، ولكن هل سيفلت ذلك الذئب مثلها دون عقاب أو مساءلة؟! كانت تلك الساعات القليلة مسرحًا لهواجسي وهلاوسي معًا من أثر ذلك الفيروس الأثيم هو أيضًا، ولكني في نهاية الأمر لم أحظَ بعذاباتي من أثرها إلا

obeikan.com

بضعة ساعات ؛ فحوالي الساعة العاشرة تقريبًا كان عصام يقف إلى جواري صائحًا في سماجة تماثل ذلك الصداع الذي بات يحتل حواف رأسي، في استعداد لموجة من التوغل والتمدد في حنايا عقلي، منذرًا باحتلال قد يطول والذي لن تفلح معه أسلحة الدواء التقليدية، كان عصام يصيح في متوالية منغمة، وكأنه مغن أوبرالي ذو صوت خارق:

- أنور، أنورررر، فوق يا بني آدم، الساعة قد تعدت العاشرة بقليل، وهنالك إشارة من المصلحة، يجب أن تطلع عليها فورًا.

كنت أستمع إلى صوته في صعوبة، وكأنه قادم في خفوت من مشارف السماء، كنت أشعر أنني حبيس في بئر عميقة مظلمة، أعاني أوجاع الغيبوبة والوحدة والحصار، لكنني أخيرًا انتبهت على ضحكاته المتتابعة، وهو يردد:

- ربنا يوعدنا يا سيدي، نقلوك للإنتربول مرة واحدة، من قدك يا سيادة المقدم!

كان يردد هذه العبارة دائمًا، كنوع من التفخيم والتعظيم، حينها فقط انتفضت من مكاني، وكأنني اخترقت جوف الأرض في لحظات، عائدًا إلى سطحها من قلب ذلك الجب العميق!

obeikan.com

اعتدلت وأنا أفرك عيناي، اللذان أصابهما الاحتراق من شدة الإرهاق والمرض، ثم نظرت إليه من وضعية الجلوس قائلاً:

- كفاك مزاحًا في هذا الصباح؛ فالليلة الماضية كانت لعنة بكل المقاييس، وقد بدأت أصدق نظريتك في هذا المكان، إنه مكان ملعون حقًا؛ البشر والحجر لعنات متحركة تسري من حولنا!

قاطعني عصام مستمرًا في الضحك:

- أنا لا أمزح يا رفيق الكفاح، وعلى العكس فقد بدأت أغير من نظريتي السابقة؛ فأنت لم تقضِ معنا سوى أسابيع قليلة، وها أنت راحل عنا إلى إدارة الإنتربول الدولي؛ حيث العيشة الهانئة، والقضايا الناعمة، والمكاتب المريحة، والوسائل الكاملة، يا لك من محظوظ!

أشعلت لفافة من تلك العلبة الراقدة إلي جواري، ثم وقفت في ضيق صائحًا:

- كفاك مزاحًا يا رجل.

وتابعت وأنا أنفث الدخان من حنايا صدري في كآبة:

- فعلينا أن نجد حلاً في قضية ذلك الذئب الملعون!

تراجع عصام إلى مكتبه خطوات للوراء عاقد حاجبيه في دهشة، ثم التقط ورقة من على صفحته مرددًا:

- لماذا تظنني مازحًا، إنني صادق فيما أقوله لك.

قدم لي تلك الورقة قائلاً:

- هذه الإشارة التي جاءت على عجل وأنت تغط في نوم عميق، تفيد نقلك إلى قسم الإنتربول.

ناولني الورقة ثم استمر مسترسلاً:

- والآن يجب أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة، فلتغتسل سريعًا، ولنتناول طعام الفطور؛ استعدادًا للاحتفال بك، والذي ستكون كل تكاليفه على حسابك طبعًا.

أخذت أتفحص الإشارة في نهم، ثم أخذت أصيح وأنا أدور حول نفسي:

- اللعنة! ما هذا الهراء، لا بد أن أنتهي من تلك القضية الغامضة، إن الأمر قد صار تحديًا خاصًا بالنسبة لي.

نظرت إلى عصام في حدة قائلاً:

- من فضلك يا سيادة الرائد، ريثما أغتسل وأكمل ارتداء ملابسي، أريد أن تكون قوة القسم كاملة في انتظاري، قاطعني عصام قائلاً:

- مالك يا بني آدم؟!

قاطعته في حدة:

- الرائد/ أنور من فضلك، وهذا أمر أرجو أن ينفذ على الفور؛ فأنا ما زلت منتدبًا هنا لحل هذه القضية، حتى أرحل عنكم بغير رجعة.

نظر إليّ عصام وقد بدأ الغيظ يرسم ملامحه على وجهه، لكنه هز كتفيه في ضيق قائلاً:.

- حسنا، حسنا.

ثم تراجع إلى الوراء حتى مر خارجًا من باب المكتب، في حين توجهت مشحونًا بالأفكار المتسارعة باتجاه الحمام؛ فقد كان عليّ أن أصل إلى قرار سريع فيما هو قادم؛ فلم يعد أمامي من الوقت الكثير، وكأنما بات هذا الذئب على وشك الإفلات

سارحًا في الفضاء في انتظار لحظة الانقضاض من جديد!

كان الأمر موجعًا، ولكن كم من الأمور الموجعة في حياتنا، وكم من تلك الأمور التي نقوم بفعلها في وضعية الاضطرار، كمثل هذا الحمام البارد الذي أرقد تحت زخاته مرتعشًا كفرخ الطيور الصغير الراقد في عشه على أحد الأغصان في مهب الرياح والأعاصير.

كانت الأفكار تتمازج وتتقلب في عقلي وكأنها قطع اللحم الراقد بين موجات الحساء فوق شعلة النار الحارقة، ماذا أفعل في هذه القضية الملعونة؟! وفي تلك الخيوط المتشابكة بلا صورة أو ملامح؟! كيف أمضي في هذه المتاهة حتى أصل إلى ذلك القاتل المختل؟! بأي الخيوط أمسك؟ وأي الخيوط أتبع؟

لكني في نهاية الأمر وبعدما أنهيت تلك المأساة الباردة، ومضيت في ارتداء ملابسي، لمعت في رأسي تلك الفكرة المتوهجة كما الشهاب في قلب السماء المظلمة، إن الجرائم حقًا كما قطع اللحم، لا بد من نضجها حتى يسهل التهامها وهضمها، أما إن كانت أو ظلت كالقطعة النيئة، فستكون مهمة شاقة في تمزيق أطرافها، والتهام أبعادها، والقدرة على انهائها!

وهذه الجريمة المتشابكة كتلك الصورة تمامًا؛ قطعة كبيرة من اللحم النيئ، ولا بد من انتظار تمام نضجها، ولكن هذا الأمر بحاجة إلى مزيد من الوقت، وإذا ما كان ذلك رفاهية؛ فلا بد أن أعمل على الإسراع من عملية نضجها بكل الوسائل المتاحة.

قصدت الدرج هابطًا وقد اكتملت في رأسي ملامح الخطة المقبلة؛ فلا بد للمرء أن يهز الجذوع، وأن يشعل بعض من الحرائق الصغيرة في الأحراش؛ حتى تنطلق الوحوش من مخابئها، وتعلن عن نفسها من أثر الحريق المحيط!

obeikan.com

وصلت إلى باحة القسم، حيث وجدت عصام ينتظر هو وصلاح في غرفة المأمور، أما باقي قوة القسم؛ فما بين الخدمات المعتادة، وبين الأعمال الكتابية في باحة القسم، توجهت إلى عصام حيث ينتظر صائحًا:

- يا سيادة الرائد، هل هذا ما اتفقنا عليه؟!

واسترسلت بقدر كبير من الانفعال المصطنع:

- هذا تهريج، وعمل غير مسؤول، وأنا من ساعة ما أتيت إلى هنا، ومظاهر الإهمال والتسيب ظاهرة في جنبات هذا المكان.

قاطعني عصام في تهور كما أعرفه دائمًا:

- من فضلك يا أنور بيه، لا أسمح لك أن تتكلم معي أو مع رجالي بهذه الطريقة.

قاطعته في انفعال مضاد:

- أنا هنا في مهمة رسمية، ولي حق إصدار الأوامر بخصوص هذه القضية كما أشاء.

قاطعني صلاح هذه المرة قائلاً:

- يا سيادة الرائد، لا يصح ما تقوله أو تفعله!

obeikan.com

نظرت إليه في ازدراء:

- أنت آخر المتكلمين بخصوص العمل، أنت ضابط فاشل، ولا مستقبل لك، ومُبعد عن هذه القضية منذ اللحظة، وسأورد هذا في تقريري النهائي بشأن هذه القضية.

انتفض صلاح كمن لدغة ثعبان محاولاً الاشتباك معي، لكن عصام سيطر على هياجه قائلاً:

- أهذا ما تفعله المناصب بالمرء؟! على أي حال، صلاح رجل من رجالي، وأنت من قمت باختياره من الأساس، وإن كان فاشلاً كما تقول؛ فهذا دليل على فشلك أنت من قبله.

ثم جذبني عصام من يدي إلى خارج الحجرة فألفيت قوة القسم وقد تجمهرت إلى جوار الغرفة في اندهاش من أثر هذا النزاع الذي وصلت حدوده إلى آذانهم بقصد أو دون قصد منهم، مضيت أنا وعصام إلى خارج القسم حيث سيارتي، ودار بيننا حديث قصير، تخللته بعض من اللفافات المشتعلة، ثم قفزت إلى سيارتي ماضيًا في طريقي لاستكمال بقية الخطة.

●●●



obeikan.com

obeikan.com

# رقصة الذئاب

حينما وصلت إلى القاهرة، توجهت مباشرة إلى مكان عملي في مصلحة الأمن العام، حيث أعددت تقريرًا مبدئيًا عن مهمتي في الأسابيع القليلة الماضية، ثم طلبت مقابلة اللواء/ ممدوح.

كان لقاء سريعًا كما طلبت؛ نظرًا لضيق الوقت الذي كان يداهمني بكل شراسة كما الذئب الطليق في تلك القرية الملعونة، تباحثت معه بشأن خطواتي القليلة القادمة، وألححت عليه في أن يؤخر عملية نقلي إلى الإنتربول لمدة تزيد عن شهرين قليلاً؛ على وعد مني أن أنتهي من هذه القضية في هذه المدة، فإن لم أفعل فسوف أُنفذ النقل وأترك تلك القضية لزميل آخر.

تركته على وعد منه أن يقم بكل جهده في هذا الأمر، ثم رجعت إلى مكتبي حيث قمت ببعض المهام السريعة، ثم مضيت متوجهًا إلى سيارتي.

كان الجو باردًا للغاية في ذلك اليوم، وسماؤه مزدحمة بالغيوم الرمادية تمامًا كاليوم ذاته الذي طالعت فيه ملف هذه القضية الغامضة!

obeikan.com

نظـرت في سـاعتي فوجدتهـا تقـارب علـى الثالثـة مسـاءً، ولـم يكـن هـذا موعـدًا مناسـبًا للقيـام بهـذا الموعـد المهـم؛ فقـررت أن أؤجلـه قليـلاً، واتخـذت طريقـي سـريعًا إلـى حيـث منزلـي؛ كنـت في احتيـاج ملـح لبعـض مـن الراحـة، وفي احتيـاج أكثـر إلـى حمـام سـاخن؛ لكـي يمنحنـي مزيـدًا مـن صفـاء الذهـن؛ حتـى أسـتطيع أن أعـود إلـى سـاحة الصـراع مـن جديـد؛ لمطـاردة ومراقبـة الذئـاب في رقصتهـا التـي كنـت أتمناهـا الأخيـرة.

بعـد مـرور يومـين قضيتهمـا في منزلـي؛ مـا بـين بحـث وتفكيـر، وبعـض الاتصـالات الهاتفيـة الضروريـة، انطلقـت في صبيحـة هـذا اليـوم بعدمـا رتبـت كل الأمـور اسـتعدادًا للانقضـاض؛ فالذئـب لـم يعـد بعيـدًا عـن قبضتـي، أعـددت تلـك المأموريـة التـي سـتنطلق مـن مصلحـة الأمـن العـام، بمعاونـة عصـام ورجالـه، وتحـت إمرتـي مباشـرة، كمـا أكـدت علـى اسـتبعاد المـلازم صـلاح تمامًـا مـن نطـاق هـذه القضيـة، بـل إننـي وجهـت رؤسـاءه المباشـرين بـأن يمنحـوه أجازة في هـذا اليـوم تحديـدًا.

كنـت في تلـك الأثنـاء في طريقـي لموعـد مـع أيمـن بيـه، وكيـل النائـب العـام المسـؤول عـن القضيـة لاسـتصدار أمـر بالقبـض علـى تهامـي المجذوب، بنـاء علـى شـكوك قويـة، تؤكـد أنـه المجـرم المطلـوب؛ فتلـك الورقـة التـي كانـت ترقـد في جيبـي، بخـط يـده، وبعـض

التحريات الأخرى، ومشاهدته يلهو مع الأطفال في القرية، تعد أسبابًا قوية للقيام بهذه الخطوة؛ وخاصة أنني قد وضعته تحت مراقبة مكثفة خلال اليومين الماضيين، وجمعت كل التفاصيل عن تاريخه المرضي، فهو شاب يبلغ من العمر الحادية والثلاثين، كان شابًا طبيعيًا ومتفوقًا، إلا أن وفاة أخته الصغيرة ووالده في حادثة أمامه وهو في عمر المراهقة أثرت عليه؛ مما جعلته يخضع لعلاج نفسي لفترة طويلة، تناول فيها العديد من العقاقير الخطرة التي تؤثر على القدرات العقلية والنفسية، ورغم هذا العلاج، إلا أنه لم يُشفَ من أثر هذه الصدمة، لم يكمل تعليمه، ولم يعد قادرًا على العمل أو العناية بنفسه، وإنما هو طليق كما رأيته أول مرة، هنا وهناك، يحمل دفتره الغريب في يده، ويجمع النقود نظير قصاصات الورق الممزق الذي يكتبه، ثم يعود إلى حيث منزله في المساء، إذ تعتني به أخته الكبرى وزوجها بعد وفاة والدته منذ سنوات قليلة.

لقد كان هذا الشاب ضحية الحب والصدمة، فقد كان يحب أخته الصغيرة حبًا جمًا وكأنها طفلته هو، وليست أختًا له، كانت طفلة جميلة بحسب الأقوال، وكان ضحية لعذابات الضمير، ونوبات اللوم، فلم يغفر لنفسه أبدًا أنه أهملها حتى لقت حتفها وهي تعبر الطريق مع والدها، في حين كان منشغلاً بمطالعة إحدى

الفاترينات من حوله، وكأنها كانت بداية المأساة التي أصابت أطفال هذه القرية.

كانت جلستي في هذا اليوم مع وكيل النائب العام مختلفة تمامًا عن لقائنا الأول؛ فرغم أنه كان في محيط سلطته وهو جالس على مكتبه، إلا أنه كان أكثر انشراحًا وتباسطًا عن المرة الأولى، وقد أصابه العجب مما أرنو لفعله؛ فلم يكن راغبًا في القبض على هذا المجذوب بناء على هذه الشواهد الضعيفة، ولكني كنت أكثر تمسكًا وتشددًا بهذا الخيط الذي إن تاه عنا فلن يظهر مجددًا.

إنها الفرصة الأخيرة لحل هذا اللغز وتلك المأساة، كما أكدت له أن سير التحقيقات سوف يظهر له صحة نبؤتي ونظريتي، وفي نهاية اللقاء كان في يدي الإذن بالتحرك فورًا للقبض على تهامي، ولكني طلبت منه أن يكون الإذن مفتوحًا حتى ساعات الليل؛ فهذا المجذوب كما العصفور المغرد، يحلق طوال اليوم في السماء، ولا يعود إلى مسكنه إلا في جنح الظلام!

تعمدت أن أصل متأخر إلى القسم؛ كان عصام وبقية القوة المختلطة من رجال القسم والمصلحة في انتظاري، إذ بدأنا في التحرك في تمام الساعة الواحدة صباحًا، كان غلاف الصقيع يغطي أنحاء القرية في قسوة، ولكننا كنا مستنفرين إلى درجة الإحتراق.

تحركت القوة بعدما قُسمت إلى فرقتين، إذ وصلت معلومات من الخفراء أن تهامي ما زال سارحًا كعادته في طرقات القرية.

انطلقت القوة الأولى إلى المنطقة التي حددها الخفراء، بينما انطلقت على رأس القوة الأخرى حيث منزل تهامي على أطراف القرية.

كنت أعرف في قرارة نفسي، أن المفاجآت لن تنتهي عند هذا الحد، ولكن الموقف كان صادمًا حينما وصلنا إلى منزل تهامي؛ فبعدما تجاوزنا حدود الفزع الذي أصاب أخته وزوجها، وبتفتيش غرفته التي كانت تليق بكاتب أو مثقف كبير، وليس مجذوب مختل؛ كثير من الأوراق، والصحف، وكثير من الدفاتر القديمة.

كان باديًا في ملامحها جميعًا خطه الجميل الذي أبهرني في المرة الأولى حيث لقاؤنا، ولكن الغريب أنه كان موهوبًا أيضًا في فن الرسم، وهذه النقطة كانت لب القضية كلها؛ فالمفاجأة الكبرى، أنه كانت هنالك العديد من الرسومات لصور أطفال صغار، والذي أكد لي الخفراء معي في القوة، أن هذه صور لأطفال القرية، وبقدر أكبر من التدقيق والحصر، اكتشفنا أنها صور الأطفال التي تم قتلها ونهشها بواسطة الذئب، هل هذا معقول؟! هل هذا المجذوب حقًا هو الجاني؟ وهل يملك ذكاءً خارقًا كان يخفيه عن الجميع دون أن نعي أو نشعر.

جمعنا الأدلة التي عثرنا عليها، وبعد تحريزها، اتجهنا بالقوة عائدين إلى القسم وفي صحبتنا زوج أخته، وحالما وصلنا إلى عتبات القسم، حتى فوجئت بصلاح واقفًا في استقبالنا قائلاً:

- كله تمام يا فندم، تهامي وصل مع القوة الأولى منذ دقائق، ومحتجَزًا في الداخل بانتظار حضوركم.

قلت هامسًا في نفسي: اللعنة على هذا الشاب المضطرب، وتعمدت ألا أهتم بكلماته على الإطلاق، ثم نظرت إلى عصام إلى جواري قائلً:

- من فضلك يا عصام بيه، أرجو أن تعطي أوامرك بأخذ تمام القسم، وألا يتواجد أي عنصر غريب عن القسم أو أيًا من أصحاب الأجازات أو الراحات؛ حتى وإن كان وزير الداخلية ذاته! ثم مضيت إلى داخل القسم ومعي باقي القوة القادمة من المصلحة، واتجهنا حيث احتجاز تهامي، إذ قمنا بفتح محضر سريع، لتسديد المأمورية، وقمنا بالحصول على إمضاء كل من تهامي وزوج أخته على هذا المحضر، ثم أخذناهم إلى الخارج بعض مضي حوالي ساعة، ووضعناهم في عربات الشرطة الخاصة بالقوة، وانطلقنا بالمتهمين والأحراز باتجاه القاهرة.

obeikan.com

الغريب أنه بمرور الأيام، وباستجواب بعض الشهود من أهل القرية بواسطة النيابة العامة، أكد بعضهم أنهم رأوا تهامي فعلاً يصطحب بعض الأطفال في جنح الليل، ولكنهم لم يكونوا متأكدين مما رأوا، ولم يدر بخلدهم أن تهامي العبيط، يمكنه أن يقوم بمثل هذا الفعل الشنيع والخارق! وكيف له أن يصطحب هؤلاء الأطفال إلى ذلك المكان البعيد سيرًا على الأقدام دون مساعدة من أحد؟! وكان هذا السؤال دون إجابة طوال سير التحقيقات، ولكن مع كل هذه الشواهد لم تجد النيابة العامة سوى توجيه الاتهام إلى الذئب، أو بمعنى أصح تهامي المجذوب، كما أمرت بإيداعه مستشفى الأمراض العقلية للتأكد من سلامة قواه العقلية؛ خاصة أنه كان طوال التحقيقات يهذي بالكثير والكثير من الأهازيج والأزجال المبهمة، ولم نستطع أن نستنطقه ولو بكلمة واحدة، كما أخلي سبيل زوج أخته.

وهكذا عاد الهدوء إلى القرية، رغم بعض الإشاعات التي كانت تنطلق من بعض الأهالي، مفادها أن الشرطة قررت الخلاص من هذا الصداع بتلفيق القضية لتهامي، ولكن في المجمل كان الهدوء سيد الموقف من الجميع، ولكن نفسي لم تعرف ذلك الهدوء أبدًا!

●●●

obeikan.com

# الذئب في القفص

صاح الصحفي وهو جالسًا أمامي:

- رائع، يا لها من قضية محيرة فعلاً، وأكاد أشعر بمدى سعادتك وقد توصلت إلى الجاني في نهاية الطريق، لا بد أنه مزيج من النشوة والفخر، وأنت تطالع أخيرًا ذلك الذئب في القفص! ثم عادت حماسته نحو الفتور مجددًا، وكأنما استغرق في نوبة من التفكير العميق، وهو ينظر إلى جمودي رغم ذلك الإطراء الحار الذي يلقيه على مسامعي، ثم استرسل قائلاً:

- ولكن يظل السؤال عالقًا، كيف استطاع هذا المجذوب أن يمضي بهؤلاء الصبية إلى تلك المنطقة النائية سيرًا على الأقدام؟! أم كان يملك وسيلة للركوب؟ حتى الدواب لن تسعفه في إنجاز جرائمه بتلك السرعة المطلوبة!

وقف الصحفي ثم راح يذرع المكان في حيرة، وفي شغف أيضًا؛ لكي أستكمل له الحل، وأن أضع القطعة الأخيرة على لوحة هذا اللغز، أخذ يردد في سذاجة:

- لا بد أنه لم يكن مختلاً كما اعتقد الجميع، لا بد أنه من هذا النمط من المختلين فائقي الذكاء، إنها ملامح الشخصية السيكوباتية.



obeikan.com

موجهًا نظراته لي:

- أليس كذلك؟ لقد كان عاقلاً أكثر من الجميع، واستطاع أن يخدع الكل بكل مهارة، يا له من مجرم عتي، ولكن أرجو أن تكون السلطات قد عاملته على هذا الأساس، ولم تخلي سبيله بداعي الجنون أو العته، إنه مجرم خطير، وخطير جدًا أيضًا!

قاطعته مقهقهًا وأنا أستمع إلى تحليلاته المبهرة التي كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة، ثم أشعلت لفافة في هدوء، وأنا أنظر في ساعتي، وقد تجاوزت وقت الظهيرة بقليل، ثم أمرته قائلاً:

- اجلس يا سيد/ ماجد؛ فليس لدينا متسع من الوقت، فلدي مواعيد هامة بعد أقل من ساعة تقريبًا، اجلس إذا ما كنت تريد أن تعرف حل هذه القضية.

هرول الصحفي مسرعًا إلى مكانه جالسًا كما التلميذ المجتهد قائلاً:

- بكل تأكيد، أريد أن أعرف؟

بادرته قائلاً:

- بكل تأكيد أيضًا إن تهامي لم يكن القاتل، كما كنت أعرف منذ اللحظة الأولى.

obeikan.com

شهق الصحفي قائلاً:

- حقًا!

قاطعته قائلاً:

- لقد كان أداة من أدوات هذه الجريمة، كما استخدمته تمامًا كأداة لكشف ملامحها؛ لقد كان السم والترياق في ذات الوقت!

قاطعني الصحفي قائلاً:

- وكيف هذا؟!

استرسلت قائلاً:

- كما قلت لك، إن الذئب يأتي من بعيد، كانت هذه نظريتي التي ظللت متمسكًا بها لآخر لحظة، وكان أمامي سجل الغرباء؛ المهندس، والطبيب، والمدرسة، ولكن من فيهم ذلك الذئب الذكي؟! كل التحريات كانت تؤكد أنهم على احتكاك بأطفال القرية بصورة أو أخرى؛ الطبيب والمدرسة بحكم عملهم، والمهندس بحكم ميله لمداعبة الأطفال وإغراقهم بطوفان من الحلوى بحسب ما أكدت التحريات، في أبوة قد تكون محل شك كبير.

وكان دوري بالضبط، أن أرسل الطمأنينة إلى قلوبهم، وأن أجعلهم يعودون إلى سابق عاداتهم دون حذر أو توجس، وقد كان



obeikan.com

تهامي الطعم والوسيلة لذلك، ولا أدعي أنني لم أصب بالشك والمفاجأة حينما وجدت رسومات لتلك الأطفال لدى تهامي، ولكن كان عليّ أن أستكمل الخطة للنهاية.

وبالمناسبة لقد كان عصام شريكي في هذه الخطة، فحينما تحدثنا بعد مشاجرتنا الأخيرة، أخبرته بما أرمي إليه، وطلبت معه أن يساهم في تصدير هذه الصورة بأن المجذوب هو القاتل، وأن القضية انتهت عند هذا الحد، ولكن هذا كان بخلاف الحقيقة، وخلاف ما حدث. فقد جعلت الجميع تحت مراقبتي لمدة الشهرين بما فيهم الملازم صلاح فسفره غير المبرر إلى القاهرة دون تنويه كان محل اهتمامي أيضًا، كذلك الطبيب المتواجد في القرية على الدوام دون رفيقة أو زوجة، والذي لم يفكر أن يسافر إلى بلدته رغم مرور السنين، والمدرسة ذات السلوك المنطوي والمتعجرف رغم ما تبديه من اهتمام بالأطفال في المدرسة وخارجها؛ إذ اعتادت زيارتهم في منازلهم، وتقديم الهدايا إليهم وإلى ذويهم حتى ذلك الرجل الذي أصابه الثراء المفاجئ، وظهوره لدى جمالات في منزلها، الكل كان تحت المراقبة، كنت أتابعهم جميعًا في رقصتهم المعتادة بانتظار اللحظة المناسبة.



oboeikan.com

شهق الصحفي صائحًا:

- الملازم/ صلاح، يا لك من عديم الوفاء!

ثم تراجع عن كلمته في خجل مرددًا:

- آسف آسف.

لكني لم أتوقف عند ما قاله، فقد كان همي ساعتها ودائمًا أن أصل إلى الحقيقة، ونحن جميعًا بشر، قد يصيبنا الزلل أو الانحراف في أي وقت، قاطع الصحفي حبل أفكاري متعجلاً:

- حسنًا، وماذا حدث؟ ومن هو القاتل إذن؟

أجبته وأنا أشعل لفافتي قائلاً:

- بعبارة أدق من هي، وليس هو؟

قام الصحفي من جلسته صائحًا في انفعال:

- القاتل امرأة! هذا غير معقول أو متصور!

قلت له مجددًا:

- اجلس.

فعاد إلى مكانه وهو يلوح متأسفًا بيده، ثم استرسلت قائلاً:

- بكل أسف لقد كانت هي فعلاً، إنني أذكر تلك الليلة وكأنها حدثت بالأمس، ففي خضم مراقبتي للجميع، اكتشفت أن الملازم صلاح على علاقة ودية بالمدرسة، وكان يقابلها في بعض الأوقات في القاهرة، ولكنها لم تكن تسمح بأن يتعدى الأمر فيما بينهما حدود المقابلات، كما اكتشفت فعلاً أن جمالات كانت على علاقة بذلك الثري، وهو ما عزز فرضية لديّ، بأن من قتل سلامة لم يكن هو الذئب، لأن الجثة لم تكن منزوعة الأعضاء كرفاقها في القضية ذاتها.

إنها القصة المتكررة والأزلية ذاتها؛ الأب غائب، الرفيقة مع العشيق، طفل يروي ظمأه في المساء، يرى المشهد ليكون في النهاية آخر المشاهد التي يراها في حياته!

أما هي فقد أثارت شكوكي من اللحظة الأولى، وأكدتها تحرياتي عنها؛ لقد كانت من عائلة ثرية بالفعل، قضت معظم حياتها بالخارج، بل ربما اضطرت إلى ذلك، وفي إحدى الأجازات الصيفية داخل البلاد في طفولتها، تعرضت لحادثة اغتصاب بشعة، أثرت عليها لسنوات طوال فالجانى انتهك براءتها ببشاعة، وخلف في حدود جسدها جراحًا لم تندمل إلا بعد وقت طويل،

أما جراح النفس يبدو أنها لم تُشفَ على مدار عمرها كله؛ فقد مرت السنون، وعادت إلى البلاد شابة مختلفة، منطلقة، منكبة على ملذات الحياة.

استقلت عن أسرتها بعدما أتمت دراستها، وانهمكت في غمار العمل في إحدى الشركات العالمية، بل وأقدمت على الزواج سريعًا، كل هذا كان محاولة للفرار من جرح الماضي الأليم لكنها لم تستطع أن تفر منه أبدًا.

إن النفس البشرية يا سيد/ ماجد، أعقد كثيرًا مما نتصور أو نتخيل، وما زالت العبارة دائمًا ترن في أذني، إذا ما أردت أن ترى المرض النفسي وتعرفه، فقط عليك أن تنظر حولك، إن عقدنا المدفونة، أشبه بالحفر الخفية، نقع فيها أولاً، ثم يقع فيها الآخرون من بعدنا.

هنالك من يغرق فيها إلى الأبد، ومنا من يسقط ثم يعرف الطريق إلى النجاة من جديد، بقدر عمق تلك الحفر، بقدر ما تتحدد صعوبة أو سهولة المسألة، وقد كان من الواضح جدًا، أن المدرسة/ إيمان العامري، كانت آبارها عميقة إلى درجة الخسف السحيق، لم يفلح بكل تأكيد أمر زواجها بالمرة، بل ربما فتح الجراح كلها مرة واحدة، في لهيب لم تستطع احتماله! انفصلت بعد

شهر واحد فقط، لقد كانت تميل إلى الرجال كأي أنثى، وكانت تكره كل الرجال، لأنهم صورة مستنسخة ممن انتهك براءتها، كلهم جناة في نظرها، وإن ارتبطت بأحدهم، ستظل ضحية للاغتصاب، حتى إن كان بملء إرادتها!

في حقيقة الأمر إنها كانت محاصرة تمامًا؛ بين الجوع الذي نهشها من الداخل، والخوف الذي يشل حركاتها من كل جانب، ولم يكن أمامها حل سوى الفرار، الهروب بعيدًا جدًا عن كل البشر، وعن نفسها أولاً، ولكن بمرور الوقت لم تستطع.

قاطعه الصحفي في تأثر:

- يا إلهي! إنه أمر محزن جدًا، ومعقد جدًا، إنها قاتلة وضحية في الوقت ذاته! ولكن كيف حدث هذا؟! وما ذنب الأطفال الصغار في كل هذا؟!

حدثته وأنا أمتص رحيق لفافتي الطازجة قائلاً:

- ذنبهم أنهم رجال صغار؛ فقد أدركتْ مع الوقت أن رغباتها يصعب الفرار منها كأي أنثي، ولكن الخوف دفعها أن تتقرب من الأطفال، وأن تقيم معهم علاقات غير مشروعة، طالما لم يتخطوا حاجز البلوغ، فهي المسيطرة في تلك الحالة، لقد أدلت باعترافات مثيرة للغاية، كانت الذكريات محفورة في عقلها كما النقوش

الأثرية؛ الطفل الأول كان هو بداية المأساة؛ فالحياة دائمًا لا تظل على حالها، كانت تمضي الأوقات معه، تنعم بدفء الأنثى والأم معًا وهو في أحضانها، تقلبه كيفما تشاء، ينفذ ما تريده، ببراءة الأطفال، وسذاجة البلاهاء.

ولكن كان ينضج يومًا وراء يوم، حتى اقترب من حافة الرجولة، وحاول أن ينالها في ليلة شتوية ممطرة، نالها بالفعل بل إنها استسلمت إليه تمامًا، ولكن بعد أن انتهى كل شيء، خرج طوفان الغضب من صدرها، قتلت بلا هوادة أو رحمة، مزقت أعضاءه التي دمرت حياتها في يوم شبيه بهذا اليوم، ولم تجد حلاً سوى أن تلقي بجثته في الصحراء، وليمة للذئاب!

ومن هنا بدأت الرحلة، ولكن بتخطيط أكبر، وبتركيز على الضحية بصورة أقوى، لا بد أن يكون طفلاً بريئًا للغاية، من عائلة مفككة، يعاني غياب الأب أو فقدانه.

واستطاعت بصورة أو بأخرى أن تستغل سذاجة تهامي وهذيانه، في أن يأتي لها بالأطفال عند بقعة على حافة القرية كلما أرادتهم؛ لقد كانت ذكية جدًا، لدرجة أوهمت بها هذا المجذوب أنها أخته التي فقدها قديمًا، وأنها عادت إليه يافعة من شدة اشتياقها إليه!

كان حريصًا أن يصونها هذه المرة، وألا يفرط فيها أبدًا، وأن يحافظ على سرهما مهما كلفه الأمر، ولكنه بعد توالي الأحداث، كانت تقتله عذابات الضمير والحزن على هؤلاء الصغار؛ ولهذا كان ينشد الأزجال حولهم، ويسجل صورهم في دفاتره، كان هو الآخر ضحية بريئة مثلهم تمامًا.

كانت تقتلهم بعد مرور الوقت، وقبل أن يصلوا حافة البلوغ، كانت تريد أن تشعر بالأمان؛ فالبلوغ هو الخطر الذي يداهمها دائمًا، ويدمر لذتها المجنونة، ورغباتها الشاذة، كانت تتقرب منهم، ومن ذويهم، تكتسب ثقتهم ثم تنقض عليهم كما الذئب.

قاطعني الصحفي قائلاً:

- وكيف سقطت إذن؟

أجبته:

- المراقبة أسفرت بمرور الأيام أنها تركز على طفل معين، ولقد أطلقت كل الكلاب الوفية لتراقب ذلك الطفل ولو تطلب الأمر أن يناموا تحت سقف المنزل، وهذا ما حدث؛ ففي الليلة الموعودة، جاءت بنفسها ليلاً في جنح الظلام، كنداهة الريف الأسطورية، عند نافذة الفتى الذي ظل ساهرًا طوال الليل لكي يلتقي بها في موعد أول، كان لا يعرف كنه أو ملامحه؛ فالرغبة

تظل دفينة داخل الأطفال تحركهم حتى دون ما يشعروا بها، يظل الأمر في حدود التعلق، أو الحب الساذج!

التقطته من يده، وسارت به نحو سيارتها الراقدة على حواف القرية، ولكننا جميعًا كنا مستعدين لتصويب كل البنادق إلى الذئب الحاذق؛ كانت المفاجأة أكبر من تصوراتها، تسمرت في مكانها؛ حتى ألقينا القبض عليها، وسارت معنا في وداعة تجعلك تعيد التفكير مرات ومرات في أن هذه القطة الأليفة، ذئب قاتل!

صاح الصحفي:

- يا إلهي! يا لها من مفاجأة صادمة!

وبعد لحظات من الصمت استرسل:

- وماذا بشأن الملازم/ صلاح؟ ولماذا كنت تشك فيه؟

ضحكت مقهقهًا ثم قلت:

- إنني لم أشك فيه كمشتبه، ولكني كنت أريد أن أستغله هو الآخر فيمن أشك فيها.

قاطعني الصحفي:

- تقصد القاتلة؟

أجبته:

- بالضبط، كنت أشعر بحدس قوي أنها الجاني، وكنت أريد أن أصل إليها بأية وسيلة.

ضحك الصحفي هذه المرة قائلاً:

- فتشت عن المرأة مجددًا.

أجبته قائلاً:

- ربما.

استكمل الصحفي وأنا أنظر في ساعتي:

- وهل سقطت جمالات ورفيقها أيضًا؟

أجبته بدفقات من الدخان الرمادي المتطاير من فمي:

- بكل تأكيد، وأظنهما ما زالا ينعمان بالإقامة المؤبدة خلف الأسوار.

طرق الصحفي حافة جبهته بيده قائلاً:

- وماذا بشأن هذا المهندس الذي تشاجرت معه؟

قمت من مكاني وأنا أنظر في ساعتي قائلاً:

- يا لحماسة الشباب! ولكن هذا أمر شرحه يطول، فإن لي معه قصة أخرى بحاجة إلى مزيد من الأوقات، ولا يمكن إجمالها في لقائنا هذا، وخاصة أنه انتهى بالفعل منذ دقائق ماضية.

لم يشأ الصحفي أن يثقل على مضيفه أكثر من هذا؛ فقد وقع على كنز من الغرائب والمواضيع وعليه أن يحافظ عليه للقاءات أخرى.

قام الصحفي وشكره في حرارة، على وعد بقاء قريب، مع أحداث قضية أخرى، أكثر غرابة وتشويقًا!

أوصله أنور إلى حدود البوابة، ثم عاد إلى مكتبه وقد أشعل لفافة جديدة، وأمسك بكتاب يرقد أمامه كان عنوانه «المسخ الصغير».

**تمت**

obeikan.com

## السيرة الذاتية للكاتب:

الأسم: معتز عبد الكريم أحمد عبد العزيز

باحث دكتوراة

ماجستير في القانون العام من كلية الحقوق جامعة عين شمس

بريد الإلكتروني :

bloggers2016@yahoo.com

الأعمال المنشورة للمؤلف :

رواية بلـوجـرز

رحلة صعود

obeikan.com

# الفهرس الصفحة


| | |
|---|---|
| لقاء الصباح الباكر:........................ | ٥ |
| الذِّئب:........................ | ١٣ |
| اللغـز:........................ | ٢٣ |
| رائِحة الـدّم:........................ | ٣١ |
| العواء:........................ | ٣٩ |
| موعد مع الشُّكوك:........................ | ٤٧ |
| على أرض الذِّئاب:........................ | ٦١ |
| الجوكي:........................ | ٧١ |
| نقطة المنتصف:........................ | ٨١ |
| الذئب يأتي من بعيد:........................ | ٨٩ |
| ما قبل البلوغ:........................ | ١٠١ |
| الحُمّى:........................ | ١٠٩ |
| الأنياب:........................ | ١١٥ |
| بقعة الضوء:........................ | ١٢٣ |


obeikan.com

متاعب المهنة:........................ ١٣٣

المريض الصامت»...................... ١٤٣

بوصّلة الشك:........................ ١٥٣

رحلة البحث عن بداية:.................. ١٦٣

القصاص:........................... ١٧٣

القائمة الرمادية:...................... ١٨٣

بيدوفيليا :.......................... ١٩٣

العودة إلى المجهول:.................... ٢٠٣

الرّاعي:............................ ٢١١

المَجّذوب:.......................... ٢٢١

الحوراء:........................... ٢٢٩

خطوات على الطريق:.................... ٢٤١

على الحافة:......................... ٢٥٣

صانع التماثيل:....................... ٢٦١

اللّغم:............................ ٢٦٩

obeikan.com

الاشتعال:.......................................... ٢٧٧
رقصة الذئاب:.................................... ٢٨٧
الذئب في القفص:.............................. ٢٩٥

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

**أطلس**

للنشر والإنتاج الإعلامى

**يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر**

obeikan.com